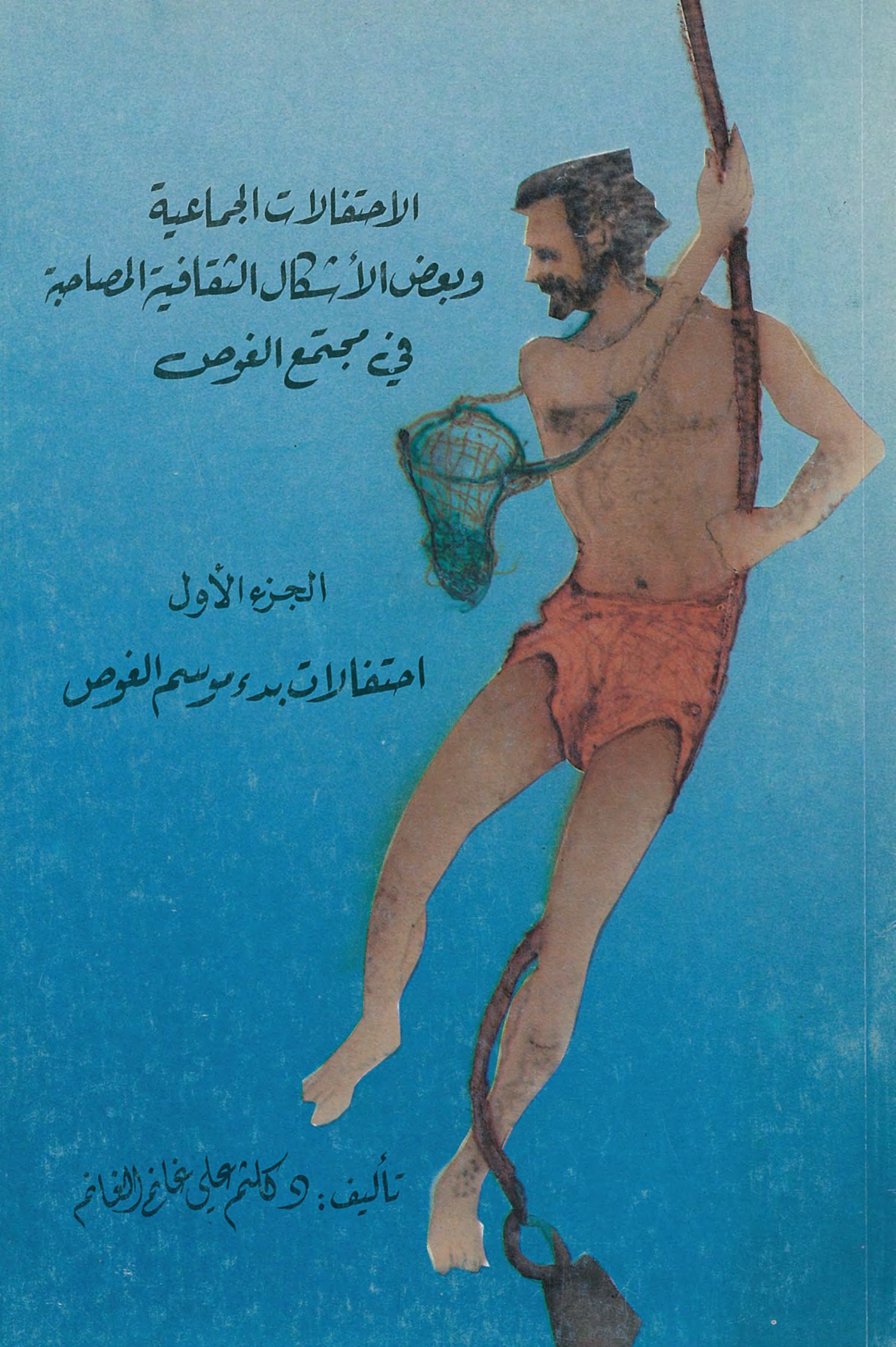

الاحتفالات الجماعية
وبعض الأشكال الثقافية المصاحبة
في مجتمع الغوص
الجزء الأول
احتفالات بدء موسم الغوص
تأليف : د كلثم علي غانم الغانم



الاحتفالات الجماعية وبعض الأشكال الثقافية المصاحبة في مجتمع الغوص

الجـــزء الأول

(احتفالات بدء موسم الغوص)

تأليف : د. كلثم علي غانم الغانم

لإشراف العـام
قسم الدراسات والبحوث
بإدارة الثقافة والفنون

الطبعة الأولى

تصميم الغلاف : يوسف أحمد الكواري

أهـــداء :

أهدي هذه الدراسة التي تعبر عن كيان المجتمع القطري ، وثقافته العامة ، وتقاليده ، وقيمه الإسلامية العربية ، إلى الشعب القطري وإلى الأجيال القادمة ، لكي تتواصل مع تراثها وثقافتها الوطنية ، وتستمد منها عناصر انطلاقها إلى آفاق جديدة .

المحتويـــات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة :

إن الدراسة التي بين أيدينا تهتم بالأسباب التي تؤدي إلى وجود ظواهر ثقافية معينـة والعـلاقـة التي تربط ظهـورهـا بظواهـر اقتصـادية اجتماعية أساساً . وبالطريقة التي تحدد شكلاً معيناً من الأداء الجماعي أو الفردي ضمن إطار احتفال معين بمناسبة معينة . سواء من حيث الأداء الصوتي أو الحركي أو الـوجـداني والتي بدورها تحدد لونا ثقافياً معيناً يميز ظاهرة اجتماعية معينة ، والأدوات والوسائل التي تساعد في تحديد ذلك اللون .

على هذا الأساس فإن الدراسة سوف تركز على الدور الذي تلعبه ثقافة المجتمـع في تحديد نوع من التعبـيرات الرمزية التي تسود تلك الاحتفالات وكيف أن نمط ونوع المعتقدات والقيم والسلوكيات السائدة في المجتمع كثيراً ماتحدد نوع الموسيقى والأداء والنصوص المتداولة .

كما أن تحليل البنــاء الثقـافي العـام قد يسـاعـد على فهم وظـائف تلك الاحتفـالات والعكس صحيح أيضـاً . فمن خلال تحليل النصـوص المؤداه ونوعية المشاركة وأسلوب الأداء . . إلخ يمكن الكشف عن كثير من المعتقدات والقيم الثقافية التي يؤمن بها المجتمع والوظيفة التي تلعبها تلك المعتقدات في الحياة العامة .

في هذا المجـال ناقش كثير من العلماء العلاقة ما بين النسق الاقتصادي والمعتقـدات الشائعة . « فعلماء الانثربولوجيا لا يكادون يتكلمون عن وجود ظواهر اقتصادية خالصة في المجتمع البدائي ، دون أن يكون لها في الوقت ذاته صفـة اجتماعية أخرى نظراً لتشابك الظواهر وتداخلها وتساندها وظيفياً » . « ويشير زومبارت في كتابه (الرأسمالية الحديثة) إلى أن النسق الاقتصادي في

أي مجتمع هو نمو وتطور للاتجاهات السائدة أو الشائعة في ذلك المجتمع والتي تؤلف ما يسميه روح الشعب أو المجتمع " Geist " فهذه الروح وليس العوامل الأخرى التي يعتبرها ثانوية هي التي لها التأثير المباشر على النسق الاجتماعي والاقتصادي لذلك « الشعب » . أما « مالينوفسكي » فلقد كان له الفضل في توجيه الأنظار إلى النواحي الطريفة ذات الدلالات العميقة التي تشتمل عليها التصرفات الاجتماعية في المجال الاقتصادي[٣] » . من هنا جاءت العلاقة ما بين الانثربولوجيا و « الفولكلور » Folkore كاصطلاح يدل على دراسة العادات المأثورة والمعتقدات[٤] » فكلا العلمين يكملان بعضهما . فالانثربولوجيا تنظر إلى الظاهرة الثقافية من خلال الإطار الذي توجد فيه . والفلكلور يميل إلى الاهتمام بالبناء الفني للظاهرة ، ولقد اتجهت الدراسات الحديثة مؤخراً إلى النظر إلى الظاهرة الإنسانية بشكل عام والظاهرة الفلكلورية بشكل خاص في إطارها الشمولي وتفسيرها في ضوء السياق التاريخي الاجتماعي الاقتصادي الذي برزت فيه . إذ أن عزل الظواهر الثقافية التراثية عن سياقها الواقعي الذي تشكلت من خلاله لا يساعد على تقديم فهم أصيل لتلك الظاهرة ولا يساعد الباحث بأي حال من الأحوال على اكتشاف الارتباطات ما بين تلك الظواهر وباقي الظواهر الاجتماعية .

ويعد « أميل دور كايم » من الرواد الأوائل في اكتشاف المضامين الاجتماعية للظواهر الاقتصادية في كتاباته -وأهمها دراسة حول تقسيم العمل the Division of Labour - التي توصل فيها إلى الدور الذي تلعبه صيغ التضامن الاجتماعي في تحديد طبيعة الأنشطة الاقتصادية السائدة في المجتمع . لذلك فإن الفرد شاء أم أبى لا يستطيع أن يخرج عن الجماعة التي هو عضو فيها ويتبنى ثقافتها ومعاييرها . ويؤدي وظيفة معينة من خلالها .

لذلك فإن الاحتفالات الجماعية لمجتمع ما ما هي إلا مظهر من مظاهر التضامن الاجتماعي السائدة فيه والذي يعكس مصالح اقتصادية جمعية

وفردية ، وتؤدي وظائف ثقافية معينة داخل البناء الثقافي العام في المجتمعات الإنسانية .

ومن هذا المنطلق فإن هذه الدراسة ستحاول إلقاء الضوء على تلك الاحتفالات من خلال النظر إلى تلك الظاهرة في بعدها الشمولي وسياقها الحضاري العام ، وخاصة الاحتفالات الجماعية المرتبطة بالظواهر الاقتصادية الاجتماعية في المجتمع . وفي الدراسة التي بين أيدينا فإن اهتمامنا ينصب على الاحتفالات الجماعية المرتبطة بموسم الغوص على اللؤلؤ .

فلقد كانت هناك علاقة قوية ما بين السكان والبيئة المحيطة ، تلك العلاقة التي نتجت أساساً من عدم قدرة المجتمع على التحكم في تلك البيئة أو تعديلها في ضوء درجة التطور التي بلغها في تلك المرحلة فخضع لها خضوعاً كاملاً . إلا أنه تمكن من أن يطور من نظمه المالية في مجال صناعة أو مهنة صيد اللؤلؤ - النشاط الاقتصادي الرئيسي في المجتمع - بحيث تناسبت مع الأوضاع العامة للسكان وظروف البيئة ، وأن يسخر موارده البشرية بحيث تخدم وتستغل ما وفرته تلك البيئة من موارد طبيعية ، الأمر الذي مكنه من إقامة تجارة تصديرية قائمة على تلك الموارد . ولقد ساعدت موسمية ذلك المورد الطبيعي أو المحصول وندرته على ارتفاع أسعاره ، لذلك وعندما تمكن اليابانيون من استحداث طرق وأساليب ساعدت على تنمية ذلك المورد عن طريق زراعته وبشكل مكثف ، تدهورت أسعاره بصورة حادة ، وبذلك تم القضاء على اقتصاديات صيد اللؤلؤ التي مثلت أحد أهم دعائم الاقتصاد في المنطقة لعدة قرون .

إن تلك العلاقة المتينة الطويلة ما بين السكان والبيئة البحرية قد خلقت ثقافة عامة ترسخت في وجدان سكان هذه المنطقة وتغلغلت في أدق مظاهر حياتهم اليومية - كما سنرى فيما بعد - وتجلت في أقوى صورها في إقامة

الاحتفـالات الجـماعية المرتبطة بنشاط السكان الاقتصادي . حيث توحدت القيم والأهداف وبرزت في شكل عمل جماعي ترافقه طقوس واحتفالات مهيبة رغم بساطتها التي هي في الواقع غير حقيقية وإنما أوحت بها تلك التلقائية والعفوية التي يتم بها تجميع الناس وإقامة الاحتفال ، إلا أننا إذا دققنا النظر فإننا سنجد أن تلك العفوية فرضتها قوة العلاقات الاجتماعية وتماسكها في تلك الفترة والتي كانت تساعد على جمع حشود كبيرة في فترة وجيزة وبدون مقابل في معـظم الأحوال . هذا بالإضافة إلى وحدة الهدف الا قتصادي نتيجة كون أنشطة صيد اللؤلؤ هي المصدر الوحيد للرزق أو أحد أهم المصادر المتاحة والتي زادت من قوة شبكة المصالح الجمعية ما بين السكان التي فرضتها نظم التمويل وتقسيم العمل حسب ما سنرى في الصفحات القادمة والتي ستكون بمثابة مدخل عام عن ظروف المجتمع الاقتصادية نظراً لعلاقتها الوثيقة بموضوع الدراسة .

مدخـل عـام للمجتمـع :

قبل أربعين عاماً كانت المنطقة تعايش واقعاً اقتصادياً مختلفاً في معظم أوجه الحياة وبالتالي واقعاً اجتماعياً وثقافياً وسياسياً مختلفاً يتناسب مع مستوى التطور الحضـاري الـذي كانت تمر به في تلك الحقبة . ورغم بقاء بعض رواسب الماضي في بعض الظواهر الثقافية . إلا أن معظمها قد اختفى باختفاء مبررات وجـودهـا ولم تبق سوى بعض المظاهر المرتبطة بالبناء الحضاري العام الذي تنتمي إليه المنطقة .

كانت شعوب المنطقة تعتمد اعتماداً كاملاً على ما توفره لها البيئة المحيطة من وسائل بقائها . وبما أن مواقع مدنها ذات جبهة بحرية مناسبة جداً وغنية بشتى أنواع الأحياء المائية فإن هناك علاقة قوية ربطت ما بين السكان وتلك البيئة .

مع ذلك فإن البناء الاقتصادي قد واجه صعوبات كثيرة نتيجة اعتماده على البحر كمصدر وحيد لمصادر الرزق فرضته ظروف البيئة الصحراوية الفقيرة التي دفعت السكان في البداية إلى حوافها ثم إلى السكن في أبعد نقطة عنها على السواحل الغربية لبحر الخليج .

ففي فترة من التطور لم تعد مصائد الأسماك تمثل مصدراً جيداً يساعد على الاستقرار وبناء المدن فبرزت مصائد اللؤلؤ كبديل اقتصادي يوفر مستويات معيشيه أفضل للسكان . إلا أن عمليات الاستثمار في تلك المادة قد واجهتها صعوبات أساسية . أهمها الظروف المناخية التي حددت مستويات ومواسم الاستثمار . فالسكان لا يستطيعون صيد اللؤلؤ إلا في موسم أساسي وحيد يشمل فصل الصيف . إذ أن دفء المياه من أهم الظروف التي يجب توفرها للقيام بالغوص إلى الأعماق وذلك في ضوء نقص الوسائل التكنولوجية آنذاك . ويمكن أن نلخص أهم الظروف التي يجب توافرها لكي تتم عمليات صيد اللؤلؤ في الآتي :

١ - توفر اللؤلؤ كخامة طبيعية . وسلعة تجارية في نفس الوقت . ولقد كان بحر الخليج يتميز بتوفر اللؤلؤ الثمين في قيعانه .

٢ - توفر عدد كبير من المغاصات بحيث تغطي كثافة الاستغلال المحلي والأقليمي لتلك الخامة . وإلا حدثت منافسة شديدة قد تعيق من تطور تلك الصناعة ومستوى مشاركة السكان بفعالياتها . وفي الواقع فإن توفر تلك المغاصات في المنطقة كان أحد أهم أسباب تطور مستويات الاستغلال الاقتصادي وأثر بشكل إيجابي على استقرار السكان في المنطقة .

٣ - توفر رؤوس الأموال اللازمة لتسيير رحلات الغوص خاصة في بداية تكثيف استغلال اللؤلؤ . وتم التغلب على تلك المشكلة بعد مرور فترة زمنية على استقرار السكان في المنطقة مع الاستمرار في تسيير رحلات

الغوص مما ساعد على زيادة التراكم النقدي وأدى إلى تكثيف رؤوس الأموال المحلية المستثمرة في مجال اقتصاديات الغوص .

٤ - توفر السفن ذات الأحجام الكبيرة حيث فرض البحر كوعاء يضم تلك الخامة وسيلة نقل معينة وأسلوب عمل معين الصالحة للاستعمال في رحلات الغوص . حيث واجه السكان صعوبة في هذا المجال في ضوء عدم وجود صناعة محلية للسفن نتيجة فقر الظهير الزراعي وبالتالي عدم توفر الأخشاب المادة الأساسية في صناعة السفن والقوارب الشراعية فكانت تستورد الأخشاب باستمرار من السواحل الشرقية للقارة الأفريقية ومن شبه القارة الهندية . هذا بالإضافة إلى عدم توفر المهارات المحلية التي يمكنها أن تؤسس صناعة في هذا المجال . لذلك لجأ أصحاب رؤوس الأموال إلى شراء السفن من عمان والكويت اللتين ازدهرت فيهما تلك الصناعة على الرغم من عدم توفر مادة الصناعة (الأخشاب) إلا أن توفر العمالة الماهرة في هذا المجال مع استيراد المادة الأساسية في تلك الصناعة قد ساعد على تأسيس صناعة سفن مزدهرة ، ولا يخفى دور ازدهار التجارة البحرية في كل من الكويت وعمان - نظراً لموقعهما الجغرافي المميز على حواف القارات - في تدعيم صناعة السفن . في حين أن مناطق أخرى بعيدة عن الخطوط التجارية مثل (قطر) تجد صعوبة في عمليات الاستيراد مما أثر على ازدهار مثل تلك التجارة . مع ذلك وفي تطور لاحق ومع توطن عمالة ماهرة في صناعة السفن تكونت صناعة محلية في هذا المجال وإن ظل دورها محدود النطاق ولا يغطي الاحتياجات المحلية من هذه الصناعة نتيجة ازدهار رحلات الغوص وازدياد الطلب على السفن . فكان دورها الأساسي يتركز في إصلاح وصيانة السفن .

٥ - توفر الأيدي العاملة : وفي البداية عانت المنطقة من نقص الأيدي العاملة . ومع استمرار توطن القبائل المهاجرة من (نجد) وأخرى من

الصحراء القريبة وانخراطها في أعمال الغوص ازدهرت اقتصاديات صيد اللؤلؤ . ولقد كان لتوافد عمالة موسمية أجنبية من الساحل الفارسي ومن قلب شبه الجزيرة (نجد) ومن أطرافها (الأحساء وهو أقليم زراعي) بمثابة رافد جديد ساهم في ازدهار اقتصاد الغوص .

لقد شكلت تلك الظروف محور الصراع ما بين الإنسان والبيئة المحيطة به وحددت مستوى استفادته منها بالوسائل المتاحة لديه . وانعكست على مستويات ومواضع استقراره وتوطنه ونظمه الاقتصادية التي أثرت في نظمه الاجتماعية والثقافية بشكل مباشر وغير مباشر .

ولقد كانت علاقة السكان مع البحر علاقة اقتصادية ثابتة فهو مصدر رزقهم على مدار السنة رغم موسميته (حيث يعيشون في فصل الشتاء على مبلغ التسقام ومواد التمو ين التي تمدهم بها فئة النواخذة أو أحد المسقمين وهم مجموعة السادة الاقتصاديين المعروفين في المجتمع) ففي الوقت الذي ساعد فيه نشاط الغوص على اللؤلؤ في التغلب على صعوبات العيش في فصل الصيف حيث أوجد مصادر رزق وعمل في فصل الجفاف القاسي فإن تلك المبالغ التي يصرفها الممولون للسكان قد ساعدتهم على الاستقرار والبقاء في فصل الشتاء الفقير (رغم وجود بعض المراعي إلا أنها لم تكن تكفي الاستهلاك المحلي) مما أوجد نوعاً من التوازن الاقتصادي بين ظروف البرَّ والبحر ، في الموسمين الأساسيين الشتاء والصيف . رغم أن الأول هو فصل بطالة (نسبيه) والصيف هو فصل العمل الأساسي .

كما أن تلك العلاقة الثابتة بين السكان وبين البحر قد أدت إلى ظهور مدن ومراكز حضرية على طول الساحل الغربي للخليج العربي . وبالنسبة لشبه جزيرة قطر فإن مواضع المستوطنات الحضرية قد تحددت على ساحلها الشرقي نتيجة عاملين أساسيين :

أولهما : بتمثل في تميز ذلك الساحل بوفرة المراسي الطبيعية الصالحة لرسو السفن .

وثانيهما : كون معظم مغاصات اللؤلؤ وأجودها إنتاجاً تقع قبالة ذلك الساحل .

فازدهرت مراكز حضرية عديدة بازدهار اقتصاديات اللؤلؤ من خور العديد في أقصى الطرف الجنوبي للساحل حتى خور حسان في الطرف الشمالي الغربي لشبه الجزيرة القطرية حيث انتشرت مدن ومستوطنات ساحلية أهملها الدوحة والوكرة والخور والزبارة وتبادلت الأهمية مع مراكز أخرى في فترات تاريخية مختلفة ، فمثلاً نجد أن الحويلة كانت مركزاً حضرياً مزدهراً في القرن الثامن عشر والتاسع عشر كذلك الغارية ، ومدينة « الزبارة » التي كانت في وقت من الأوقات من المراكز الحضرية المهمة في المنطقة . وهذه أبيات شعرية مجهولة المؤلف تصف مدينة الزبارة وهي في أوج ازدهارها :

ياطير باسم الله وقوطر مع القوم	قوطر وتلقى سكه مستضيقه
تلقى الزبارة دبرة البيع والسوم	في سوقها كل يضيع رفيقه

تشير الأبيات السابقة إلى أن الزبارة كانت مدينة مزدحمة بالسكان ومركزاً تجارياً رئيسياً وإنها من كبر حجم سوقها وازدحامه كان الرفيق يضيع رفيقه فيها . وفي الواقع فإن كثيراً من المدن الساحلية ارتبطت أهميتها بأنشطة الغوص واندثرت نتيجة عوامل وخلافات سياسية مثل « الحويلة والزبارة وخور حسان والفويرط » ونتيجة تحول القوى الاقتصادية التي كانت تسكن بها إلى مدن أخرى نتيجة الخلافات والدمار الذي لحق بها كما حدث لمدينة الدوحة عندما ازدهرت حين تحولت إليها القوى الاقتصادية المتمثلة في تجار اللؤلؤ وكبار المسقمين .

وهنـاك مدن اختفت بمجـرد غياب تلك القـوى آلياً مثـل (الضعاين والوسيل والغارية) سواء بسبب الوفاة أو بتغيير مكان السكنى . كما أن هناك مدنا ساحلية قد اندثرت منذ فترة قريبة (قد تصل إلى ٢٥ سنة) نتيجة الهجرة الداخلية إلى العاصمة أو بناء مستوطنات حديثة قريبة منها مثل « العريش أبو الظلوف والرويس وفريحه وعين محمد والغارية والمفير . . إلخ) .

كان نظام الغوص الاقتصادي يوفر الاكتفاء الذاتي لكل مدينة من المدن السابقة أي أن المدينة تصبح مكتفية بذاتها ، حيث يتوفر لديها تجار يملكون رؤوس الأمـوال وسفن لتسيير رحلات الغوص والأيدي العاملة المحلية وأي نقص يحدث يتم سده عن طريق عمالـة تجلب من منـاطق أخرى ، ولديها بالإضافة إلى ذلك تجار التموين الذين يقومون بتوفير احتياجات المستوطنة أو المدينة من المؤن المختلفة ؛ بواسطة السفن التي يقومون باستخدامها في جلب المؤن من البحرين أو من مدن المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية ومن عمان وبالذات من دبي . ومن المدن القطرية الرئيسة مثل الدوحة والخور وفي فترات سابقة الزبارة والغارية .

هذا بالإضافة إلى قيام السفن التجارية الآتية من البصرة والكويت بزيارة تلك المدن حاملة معها المؤن المختلفة وأهمها التمور التي كانت غذاء رئيسياً لدى السكان في تلك الفترة كما يوفر البحر الغني بأنواع عديدة من الأسماك الغذاء للسكان على مدار السنة ، ففي كل مدينة توجد فئة من السكان تعمل بصيد الأسـماك وتملك سفن صيدهـا وأدوات الصيد المختلفـة بالإضافة إلى مصـائـد الأسـماك السـاحلية (المساكر) وهي أحد الوسائل التي يستخدمها السكان في الصيد وهي أحد ابتكاراتهم في هذا المجال . ولقد بلغ عدد سفن صيد الأسـماك في البلاد حوالي ٢١٥ قارباً[٥] وأما بالنسبة لمياه الشرب فلقد تميزت قطر بوفرة عيون الماء العذبة إلا أنها كانت في الأقليم الداخلي وبعيدة نسبياً عن المدن ، فكان السكان يقومون بجلب المياه على ظهور الجمال والحمير

وظهرت مهنة أساسية مرافقة لتلك العملية سنتحدث عنها في الفصول القادمة .

من ذلـك نجـد أن التركز السكاني في مستوطنات حضرية عديدة على السـواحل قد فرضه أساساً الأسلوب الإنتاجي السائد آنذاك بعكس التركيز السكـاني الحـادث الآن في مناطق معينة وأهمها العاصمة (الدوحة) والذي فرضته عوامل تختلف كثيراً عن العوامل السابقة .

لذلـك يمكن أن نطلق على المستوطنات والمراكز الحضرية القديمة أنها مراكز صيد اللؤلؤ[٦] . حيث تمثل المهنة الأساسية للسكان والسبب الرئيسي في تجمعهم في تلك المستوطنات . بحيث تختفي باختفاء القدرة أو القوى المادية التي تعتـبر ضرورة حتمية لممارسة ذلك النشاط أو تلك المهنة . وبذلك فإن موسم الغوص هو أهم المواسم التي تواجهها تلك القرى أو المراكز . فتزدهر أسواقها قبيل بدء الموسم ويتزايد عدد السكان نتيجة توافد العمالة المشاركة في رحلات الغوص التي تقوم القوى الاقتصادية فيها بتسييرها .

أمـا أهم وأبـرز المظاهر في ذلك الموسم الاقتصادي الرئيسي فقد كانت المـظاهـر الاحتفـالية المـرافقة لإنزال السفن أو شراء سفن جديدة وعمليات الصيانة والشونة . واحتفالات يوم الدشة أو الانطلاق إلى مغاصات اللؤلؤ .

كذلك تظهر احتفالات وطقوس بمناسبة القفال أي العودة من المغاصات وإعلان انتهاء الموسم . هذا بالإضافة إلى ظواهر ثقافية مرتبطة بالغوص سواء تلك التي تحدث على ظهر السفينة أو في البّر أثناء الموسم وما يرتبط بها من مظاهر احتفالية وممارسات فنية ، تحمل في أبعادها المختلفة الزمانية والمكانية والتاريخية تصورات مستوحاه من البيئة المحيطة بها . ولها وظائفها الاقتصادية والاجتماعية والوجدانية .

وكانت في معظمها تعبيرات إنسانية مباشرة وغير مباشرة تعبر عن موقف الإنسـان من بيئته . وما تشكله تلك الظروف المحيطة من قيم ومعاني يهتم ويؤمن بها المجتمع وتظهر في شكل إفرازات ثقافية كان أهمها ما يمكن تداوله شفاهياً في الشعر والأغاني التي كانت الوسيلة الأساسية في التعبير مع ما يرافقها من أداء حركي يكملها وأدوات إيقاعية وموسيقية معينة مرتبطة بها .

هذا بالإضافة إلى صفة الجماعية التي غلبت على تلك الاحتفالات نظراً لكـونها تحتوى على مضامين اقتصادية واجتماعية حيوية بالنسبة للمجتمع في شكله الشمــولي وبعيداً عن الفـردية التي كانت تنصهـر في روح القبيلة أو العشـيرة - والتي لم تستـطع اقتصاديات الغوص القضاء عليها - وقد يكون السبب الأسـاسي في ذلـك كون الملكية الجمعية هي النمط السـائد في ظل مفاهيم العائلة الممتدة التي تتكون من عدة أجيال (الأجداد والأبناء والأحفاد) ومجموعة العائلات الممتدة التي تشكل ما يسمى بالعشيرة .

لذلـك فإن هدف هذه الدراسة قد يرقى من مجرد الوصف للمناسبات الاحتفالية في مجتمع الغوص إلى محاولة فهم مضمون ووظيفة تلك الاحتفالات سواء كانت تحتوي مضموناً أو وظيفة اجتماعية أو اقتصادية أو قيمية وأخلاقية أو نفسية وجدانية . مما قد يساعد على تقديم فهم أعمق لمظاهر الحياة الثقافية العامة للمجتمع .

إن علاقةّ المناسبات الاحتفالية بظروف المجتمع ككل قد أعطاها بعداً شمولياً . حيث لا يخفى ما لاحتفالات مجتمع الغوص الجماعية من مدلولات عميقة كانت تمثل جوهر المجتمع السابق . لذلك فإن دراسة تلك الموروثات الثقافية من الأمور التي يجب أن يهتم بها الباحث في هذا المجال نظراً لما تمثله من تراث حضـاري يستمـد المجتمـع منهـا هويتـه في مقابل زحف وطغيان التيارات الثقـافية الأجنبية التي قد تهدد كيانه وشخصيته الأصيلة . من هنا

جاءت أهمية هذه الدراسة التي سنحاول فيها تسجيل وفحص موروثنا الثقافي وتقديمه بصورته الأصلية بدون تحريف أو تعديل كما استقيناه من مصادره الأصلية[٧] .

ولقد راعينا في هذه الدراسة التتابع الزمني للاحتفالات والأعمال والمواسم المختلفة والمرتبطة بمهنة الغوص . لذلك فقد قسمنا الدراسة إلى ثلاثة أجزاء تحتوي على أربعة عشر فصلاً . وقدمنا بها بمقدمة موجزة حول أهمية الموضوع ومدخل للدراسة بشكل عام بالإضافة إلى ملاحق احتوت على بعض المعلومات عن رجال الغوص ، ومعجم للكلمات والمصطلحات المرتبطة بمهنة الغوص .

ويضم الجزء الأول الذي نقدمه للقراء في طبعته الأولى أربعة فصول . نستعرض ونحلل في الفصل الأول منها استعدادات المجتمع لموسم الغوص والاحتفالات المرافقة لتلك الاستعدادات . أما بالنسبة للفصل الثاني فإنه عبارة عن وصف تحليلي للاحتفالات الجماعية التي يقوم بها السكان في يوم دشة الغوص أو الانطلاق إلى مغاصات اللؤلؤ في مياه الخليج . والفصل الثالث عبارة عن شرح لكيفية انتشار سفن الغوص في مغاصات اللؤلؤ . أما الفصل الرابع فإنه يضم شرح شامل وتفصيلي لأساليب العمل على ظهر السفينة ، وتحليل للصور الثقافية المصاحبة للأعمال التي يقوم بها البحارة .

ولا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر إلى مركز التراث الشعبي لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية على رعايته وتمويله لهذه الدراسة في مرحلة الجمع الميداني ، وبتسهيله مهمة الباحثة بتكليف مجموعة من الباحثين الميدانيين من داخل المركز ومن خارجه ، والذين ساهموا بشكل أساسي في جمع مادة البحث من الإخباريين . أيضاً أتقدم بالشكر للأستاذ شوقي عثمان والأستاذ صالح غريب على إرشاداتهما في مجال التصوير الفوتوغرافي وتزويد الدراسة بالصور الفوتوغرافية التي عبرت عن الكثير من المواضيع المرتبطة بالدراسة . كما أتقدم

بالشكر للأستاذ فرج لبيب على إرشاداته وجهوده في مجال التسجيل الصوتي . وأتقدم بالشكر الجزيل لوزارة الإعلام والثقافة على اهتمامها بنشر هذه الدراسة ، كما أتقدم بالشكر لإدارة الثقافة والفنون على إخراجها الدراسة على هذه الصورة . وأخيراً فإني أتقدم بالشكر الجزيل لكل الإخباريين الذين ساهموا بمعلوماتهم القيمة في إثراء هذه الدراسة ، والتي لم تكن لتظهر بهذا الشكل لولا تعاونهم الفعال .

(١) أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعي ، مدخل لدراسة المجتمع ، ط ٣ ، ١٩٧٩ ، ص ٩٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

(٤) فوزي العنتيل ، الفلكلور ما هو؟ ، دار النهضة العربية للنشر ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٧ .

(٥) UMA, KUNHiRAMAN, ECONOMIC Activities Of East Arabia Between 1900 - 1930 AD, P. 50.

(٦) مع ذلك فقد ظهرت مدن لا تظهر لديها القدرة المادية على تسيير رحلات غوص وبذلك انتفت عملية الاكتفاء الذاتي عنها واعتمد سكانها على المدن الأخرى في العمل مع سفنها أثناء الموسم . وظهرت بها أنشطة أخرى خاصة في فصل الشتاء مثل نقل الصخور (الفروش أو اليس) على ظهور الحمير للمدن الأخرى ، بواسطة السفن إلى البحرين . وظهرت تلك التجارة في مدينة عين محمد وفريحه في الشمال . مع ذلك كان عدد المدن خارج إطار نشاط الغوص قليلاً جداً .

(٧) تم جمع مادة الدراسة خلال دراسة حقلية استمرت من شهر سبتمبر ١٩٨٨ حتى نهاية شهر يناير ١٩٨٩ .

الفصل الأول

استعدادات المجتمع
لموسم الغوص والاحتفالات المرافقة

تمهيد :

كان موسم الغوص على اللؤلؤ يبدأ مع دخول فصل الصيف منذ بداية الشهر السادس (يونيه) ويستمر حتى الأسبوع الأول من الشهر العاشر (أكتوبر) . وقبل بداية الموسم بفترة يبدأ السكان الذين كانوا قد هجروا مدنهم في فصل الشتاء إلى أعماق الصحراء بالاقتراب تدريجياً من المراكز الحضرية الواقعة على الساحل الشرقي لشبه جزيرة قطر مع اقتراب موعد بدء موسم الغوص (الكبير) وقبيل البدء بعمليات إنزال السفن مرة أخرى إلى مياه البحر بعد أن ظلت قابعة على السواحل طوال فصل الشتاء .

فكما كانت الهجرة إلى خارج المدن تتم بعد انتهاء الموسم (القفال) فإن العودة تتم قبيل بدء الموسم . فما أن يحين موعد احتفالات إنزال سفن الغوص إلى البحر إلا ويكون معظم السكان قد تواجدوا مرة أخرى في مدنهم وتخلوا عن السكنى في بيوت الشعر ليسكنوا منازلهم الطينية الثابتة ، وقد جلبوا معهم ما يملكونه من حيوانات (مثل الأبقار والبغال والخيول والحمير والأغنام والماعز والكلاب والطيور الداجنة . . إلخ) . ماعدا الجمال التي كانت تودع لدى رعاة الإبل في البادية .

يقضي السكان معظم فصلي الربيع والصيف وهم يمارسون الغوص بشتى أنواعه وكان الغوص (العود) أي الكبير يشمل أشهر الصيف الأربعة (كانت مدة الغوص الرسمية حوالي أربعة أشهر وعشرة أيام) تتخللها فترتان راحة . تسمى الفترة الأولى « الدخلة » بعد مرور ٦٠ يوماً من بداية « الغوص العود » وهي الفترة التي تسمى « أول السَّنة » والشهر الثاني من أول السَّنة يسمى « القيظ » والقيظ شهران كاملان يصادفان الشهر السابع والثامن (يوليه وأغسطس) اللذان يتميزان بالحرارة الشديدة وسكون الرياح . وكانا يمثلان الموسم الرئيسي لحرفة الغوص ، حيث يرتفع عدد غطسات كل غواص ، ويمارس الغوص فيهما منذ الصباح الباكر حتى حلول الظلام .

أمـا الفـترة الثـانية التي تعـود فيهـا السفن إلى البـلاد فكـانت تسمى (الصيفية) وتكون بعد مرور ٣٠ يوماً من « الدخلة » . تعود بعدها السفن إلى مغاصات اللؤلؤ مرة أخرى ، وتبقى هناك حتى يحين موعد إعلان القفال - انتهاء موسم الغوص العود - فتعود السفن جميعها إلى البلاد في شكل جماعي .

مع ذلك فإن هناك مواسماً ثانوية أخرى للغوص على اللؤلؤ بخلاف الموسم الكبـير اثنـان منهـا يسبقـان الموسم الرئيسي . تبدأ أنشطتهما مع نهاية فصل الشتـاء . حتى بداية الشهر الخامس (مايو) عندما تتوقف ليبدأ الاستعداد للغوص العود . والموسمان الآخران يكونان بعد انتهاء الموسم ويستمران حتى بداية دخـول فصـل الشتـاء . وتلك المـواسم لا تمثـل أهمية تذكـر بالنسبة لاقتصاديات الغوص . وذلك لسببين أساسيين . السبب الأول : برودة المياه التي لا تسـاعد على التوغل في البحر من أجل الوصول إلى الهيرات الجيدة كذلك يكون عدد الغطسات التي يقوم بها كل غواص قليلة جداً بسبب برودة الطقس التي حددت فترة معينة من النهار (منتصف النهار) لمزاولة الغطس . أمـا السبب الثـاني : فكـان يتمثل في ضعف المشاركة العامة التي لا تكون بالمستوى الذي يكون عليه حجم المشاركة في الغوص العود سواء من حيث عدد البحارة أو من حيث عدد السفن المشاركة . فلقد كان الأمر يقتصر على مشـاركـة السفن الصغـيرة الحجم (بسبب قرب الأمـاكن التي يمارس فيهـا الغوص) . أما السفن الضخمة فإنها لا تشارك إلا في الموسم الرئيسي . وذلك قد يرجع في جانب منه إلى نظم التمويل المتبعة فيها كما سنرى فيما بعد . وكل تلك العوامل قد أثرت على كمية المحصول وبالتالي على حجم الأرباح لتلك المـواسم الثانوية . ولقد كان هناك أربعة مواسم ثانوية . اثنان منها يسبقان « الغـوص العـود » وهمـا «البشـيرية» (ويطلق عليهـا مينى أو مجنى) ، و«الخـانجية» . وآخـران بعد نهاية الموسم ، الأول يسمى « الردة » ، والثاني يسمى « أرديدة » . وسنقدم هنا بعض التفاصيل عن « البشيرية والخانجية »

قبل التطرق إلى الحديث عن الموسم الرئيسي للغوص والاحتفالات المرافقة له . أما موسم الردة والرديدة فسوف يتم الحديث عنهما في الفصل الأخير .

البشـــيرية أو الميـــنى :

هذا الموسم عبارة عن مجاني أو مياني -حسب اللهجة المحلية- ويكون في نهاية فصل الشتاء . ولقد ساعدت الظروف والظواهر المناخية في تحديد زمن وأماكن ذلك الموسم والأسلوب المتبع في جني المحار . خاصة في وقت انحسار مياه البحـر قرب الشـواطىء فتصبـح ضحلة في أوقات الجزر أو « الثبر » - حسب اللهجـة المحلية - فيكون بإمكان الإنسان أن يتوغل مسافات طويلة سيراً على الأقدام داخل البحر ، وبدون أن يستخدم أية وسائل كالقوارب أو السفن . خاصة وأن الهيرات (أي مغاصات اللؤلؤ) البعيدة في المياه العميقة تكون باردة جداً في هذه الفترة .

لذلـك فإن السكان يمارسون جني اللؤلؤ من المياه الضحلة القريبة من السواحل . وكان ساحل رأس أبو عبود (يقع إلى الجنوب من مدينة الدوحة) أحد أشهر المياني في قطر ، فكان سكان مدينة الدوحة يذهبـــون إليه سيراً على الأقدام ويتوغلون في البحر ويلتقطون المحار بأيديهم . وكلما ازداد الطقس دفئاً توغلوا أكثر فأكثر ، فكانوا يتحسسون المحار بأقدامهم وعندما يزداد الماء عمقاً يغوصون على المحار ويلتقطونه ثم يأخذون ما جمعوه من محار ويجلسون على الشاطىء يفلقونه ، ويقوم الطواويش (تجار اللؤلؤ) بزيارتهم سيراً على الأقدام أيضاً من أجل شراء ما جمعوه من لؤلؤ .

ويستمـر موسم « المَيِّنى » حوالي ٤٥ يوماً . بعدها يتوقف السكان عن إلتقاط المحار من المياه الضحلة ويستعدون لموسم « السيور » بعد أن أصبحت المياه أكثر دفئاً . وفي هذا الموسم يقومون بالتوغل أكثر في داخل البحر لذلك

فإنهم يستخدمون القوارب الصغيرة . وهو موسم محدود نسبياً ، ويتشابه مع « المَيِّني » في كثير من الأمور .

موســم الخانجيــة :

بعد التوقف عن جني المحار من المياه الضحلة يأتي موسم « الخانجية » الـذي يكـون أكثـر أهمية من « المَيِّنى » حيث تزور السفن مغاصات اللؤلؤ (الهيرات) بواسطة السفن وخاصة المغاصات القريبة مثل هيرات ظهر الحالة (الجرولة والداير وبالعروق) وهي هيرات ضحلة أو غير عميقة[1] ويبتعدون أكثر فأكثر فيصلون إلى هيرات (أم العظام) .

يتميز هذا الموسم بالزيادة النسبية في عدد المشاركين عن الموسم السابق . وإن كان أغلبهم يمثلون قوة العمل المحلية كما أن تلك المشاركة لا تفرض على صاحب السفينة دفع مبالغ للبحارة من أجل المشاركة « السلف » كما يحدث في الموسم الرئيسي - كما سنرى فيما بعد - كما أن المشاركين في الرحلة ليسوا بالضرورة من « يزوي » النوخذا - أي بحارته - الذين يحتفظ بهم للعمل معه في « الغوص العود » عن طريق مبالغ معينة يقوم بدفعها لهم على مدار السنة . بمعنى آخر أن في المواسم الثانوية تكون للبحار مطلق الحرية للعمل مع أي نوخذا آخر ويركب مع أي سفينة يتفق مع نواخذاها . لكن يجب عليه أن يكون متواجداً عند بداية الموسم الرئيسي للركوب مع نواخذاه الأساسي الذي يقوم بتمويلة طوال العام .

يستمر موسم الخانجية حوالي ٣٥ يوماً بعدها يقفلون وتعود السفن إلى البلاد . ويبدأ المجتمع بالاستعداد للموسم الرئيسي . ولقد كانت تجري لهذا الموسم استعدادات ضخمة من قبل السكان منها ما يتصل بعمليات التمويل وإعداد أو شراء سفن جديدة ، ومنها ما يتصل باختيار العمال أو قوة العمل التي ستشارك في الموسم ، بالإضافة إلى استعدادات العمال وأسرهم لقضاء هذا الموسم الطويل بعيداً عن البلاد .

« الاستعداد لموسم الغوص والاحتفالات المرافقة »

تبدأ الاستعدادات للغوص الكبير بالنسبة لفئة النواخذة مبكراً . خاصة فيما يتعلق بعمليات التمويل . فالغوص في هذا المجال نوعان : سلفي وخماس . ولكل واحد منهما أسلوبه في التمويل .

النوع الأول : نظام السلفي

إذا أراد شخص تسيير رحلة غوص فلابد له من أموال تمول تلك الرحلة ، من أجل توفير الأسس الإنتاجية لاقتصاديات صيد اللؤلؤ (الأداة أو وسيلة النقل وهي السفينة وقوة العمل والمواد التموينية) التي لا يمكن تسيير رحلة غوص بدونها . لذلك فإن نظاماً مالياً برز إلى الوجود نتيجة عدة عوامل اقتصادية لا يتسع المجال هنا لذكرها[٢] . ولقد كان النظام المالي الذي يرتكز على « الاقتراض » أو « السلف » -حسب اللهجة المحلية- أهم الأسس المالية في اقتصاديات الغوص . وتزدهر عمليات الاقتراض مع بداية كل موسم للغوص . حيث يتوجه النوخذة إلى الطواش أو تاجر اللؤلؤ لكي يقترض من عنده رأس المال الذي سيمول به الرحلة . وليس بإمكان كل طواش تقديم القروض الضخمة للنواخذة . لذلك برزت فئة كبار تجار اللؤلؤ لكي تحتكر تلك العملية وبذلك تكون قد فرضت سيطرتها على النظام الإنتاجي السائد . فبالإضافة إلى عمليات التمويل وتقديم رؤوس الأموال إلى النواخذة فإنهم يحتكرون عمليات الشراء في السوق المحلية لتجارة اللؤلؤ . وبعضهم قد توسعت أعماله إلى خارج حدود التجارة المحلية لكى يتحكم في التجارة الأقليمية في هذا المجال . في هذا المجال نجد أن هناك تقسيماً للعمل أو للتخصصات فهناك من التجار من تقوم تجارته أساساً على تقديم القروض وبعضهم اشتهر باحتكار عمليات شراء اللؤلؤ من السوق المحلية .

وبعد أن يقوم النوخذا بتوفير الأموال اللازمة لتسيير رحلة الغوص ، فإنه يقوم بتجهيز السفينة ويقدم القروض بدوره إلى العمال الذين سيقع اختياره عليهم للعمل معه ، وبعد انتهاء الموسم فإن نشاطاً مالياً معاكساً يحدث حيث يقوم النوخذا بإعادة القرض الذي حصل عليه في البداية بعد أن باع المحصول ، والذي قد يكون من نصيب نفس الممول الأساسي حيث تكون له الأولوية في الشراء إلا في الحالة التي لا يناسب فيها السعر الذي يقدمه التاجر للؤلؤ المعروض عند ذلك فإن للنوخذا الحرية في البيع لغيره من التجار . كذلك يقوم البحارة برد المبالغ التي قدمها لهم النوخذا في شكل قروض قبل وخلال الموسم من حصتهم من الأرباح ، فكما أن القروض أو رؤوس الأموال في البداية تأخذ مساراً تنازلياً من التاجر إلى النوخذا إلى العمال ، فإنها بعد انتهاء الموسم تأخذا مساراً تصاعدياً من العمال إلى النوخذا إلى الطواش . . . وهكذا تتكرر العملية في كل موسم .

النوع الثاني : نظـام الخمـاس :

أو « الخماميس » وسمِّي خماساً لأن العاملين على ظهر السفينة لهم خمس المحصول لذلك فإن أرباحهم تفوق أرباح السفينة التي تتبع نظام « السلف » في التمويل . لكن من عيوب هذا النظام أنه لا تمنح على أساسه مبالغ مالية للبحارة قبل الموسم وأثناءه (السلف والخرجية) ولا حتى (مبلغ التسقام) الذي يمنح للبحارة الذين يعملون على السفن السلفية من قبل تاجر اللؤلؤ خلال فصل الشتاء أو موسم البطالة .

لذلك فإن نظام السلف هو الأكثر رواجاً بين السكان لأنه يمدهم بالقروض التي تساعدهم على تكاليف الحياة . فازدهر هذا النظام وساعد على ازدهار أعداد الرحلات وتوفير السفن الضخمة وتمويلها من قبل التجار الاحتكاريين . في حين اقتصر نظام الخماميس على السفن الصغيرة والأعداد

الصغيرة من البحارة وإن كانت في مجموعها (أي السفن) تمثل نسبة كبيرة من سفن الغوص المحلية ، وازدهر هذا النظام في المدن الصغيرة ويرجع ذلك إلى محدودية رؤوس الأموال وقلة المشاركين بسبب ضآلة عدد السكان في تلك المدن[٣] . وللأسف لا توجد لدينا إحصائية بعدد السفن حسب النوع والحجم في قطر . وإن ذكرت الدراسات التاريخية أن عدد سفن الغوص في قطر تقترب من ٨١٧ سفينة من جميع الأحجام بخلاف قوارب وسفن صيد الأسماك وسفن النقل والتجارة . وفي هذا المجال ذكر الإخباريون أن السفن الضخمة كالبوم والبقارة (وهي أكبر سفن الغوص حجماً) كانت سائدة أو موجودة في فترة ازدهار اقتصاديات اللؤلؤ . وبعضهم لم يرها بنفسه ولكن سمع الأكبر منه سنا يذكرون أنها كانت موجودة في العصر الذهبي للغوص الذي شمل العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر حتى عشرينيات هذا القرن . مع ذلك فإن نوع السفن الأكبر من حيث الحجم والرائج في المجتمع كان (السنبوق) . وهو نوع من سفن الغوص الكبيرة وإن كانت أصغر حجماً من (البقارة والبوم والبتيل) والنوع الثاني الرائج من السفن كان « الجيلبوت » . الأولى تتبع دائماً نظام السلفي والثانية قد تكون سلفية أو خماسة . هذا ويفضل السنبوك أو الجيلبوت بالنسبة للسلفي لأن هذا النظام يستطيع أن يوفر عماله أكبر بسبب وفرة رؤوس الأموال لذلك يفضل استخدام السفن الضخمة التي قد يصل عدد بحارتها إلى ٨٠ أو ١٠٠ بحاراً أو أكثر . في حين أن السفن الأصغر حجماً قد تكون سنبوكا أو جيلبوتا أو شوعياً يشيع استخدامها ضمن نظام الخماسة .

ولقد كان السكان في المنطقة يطلقون تسمية « الخشب » على السفن عامة . أما السفينة الواحدة فيقال لها « محمل » وجمعها « محامل » . ويقال « الخشب الدوم » ومفردها « دومي » أي السفن الشراعية . التي تسير بقوة الرياح بمساعدة شراع أو أكثر .

والسفن الدوم أنواع متعددة منها أنواع تستخدم للنقل وأخرى للتجارة البحرية . أما النوع الرئيسي والأكثر شهرة في المنطقة فقد كانت سفن الغوص المرتبطة بالنشاط الاقتصادي الرئيسي فيها . فكانت مياه الخليج في عهد الغوص تعج بتلك السفن من جميع الأنواع والأحجام . فسفن الغوص فيها أنواع عديدة كل نوع له شكله المميز وصفاته التي يشتهر بها . ومن أشهر تلك الأنواع (البتيل والبقارة والبغلة والبوم والسنبوق والجيلبوت والشوعي) . أما القوارب التي تستخدم للتنقلات القريبة فكان أشهرها (الماشوة والهوري) ويستخدم معهما الشراع الصغير ، أما القلص والكيت - وهما أصغر حجما من الأول - فيتم التنقل بهما بواسطة التجديف . أما سفن التجارة البعيدة فأهم أنواعها البغله والبقارة .



- سفينة غوص من نوع البتيـل -
- المصدر : مركز التراث الشعبي لدول
مجلس التعاون لدول الخليج العربية



- سفينة غوص وهي في طور البناء -
- المصدر : مركز التراث الشعبي لدول
مجلس التعاون لدول الخليج العربية

لذلك راجت صناعة السفن وعمليات إصلاحها وبرزت فئة « القلاليف » كطائفة تتوارث تلك المهنة . أي صناعة السفن وملحقاتها من مجاديف وصواري وخلافه . ولقد كان يطلق على السفينة التي تم الانتهاء من صناعتها « وشار » أو « محمل ماشور » . ويقوم النواخذة والطواويش بشراء ما يحتاجونه من تلك السفن أو القوارب وغيرها .

وكان معظم التجار يوصون على السفينة التي يريدونها وينتظرون الصناع حتى يفرغوا من إنشائها ، وعندما يتم تدشينها تقام الاحتفالات الشعبية بتلك المناسبة الكبيرة .



الأهالي يقومون بتدشين سفينة غوص جديدة
وقد قاموا بأداء طقوس مرافقة لمثل ذلك
الحدث ، وهو ذبح خروف أو أكثر ودفق
دماءه في وسط السفينة
- المصدر : مركز التراث الشعبي لدول
مجلس التعاون لدول الخليج العربية

احتفال الوشار:

بعد أن تجلب السفينة الجديدة من الخارج ، توشر في البلاد ويقيم مالكها احتفالا بهذه المناسبة أثناء سحبها إلى مياه البحر . فيرفع علماً على صارية السفينة (سواء كانت سنبوق أو بوم أو جيلبوت) وينحر الذبائح ويقيم وليمة . ويذهب الرجال ليبحثوا عن الفتيات صغيرات السن (تتراوح أعمارهن ما بين السابعة والثانية عشرة) من بناتهم وبنات أقاربهم ومن ضمنهن ابنة مالك السفينة ، من أجل تجميعهن لكي يقام احتفال « الوشار » .

تستعد الفتيات لهذه المناسبة فيلبسن أزهى حللهن ويتزين بالحلي الذهبية من جميع الأنواع والأشكال (أشهرها حلي الشعر وأكبرها حجماً القبقب وقصة السعد ثم الجتوب والهلالي ، وحلي الصدر مثل المراري والمرتعشة والمعري ، والأساور والمرامي . إلخ) ويلبسن الثوب النشل المطرز بخيوط الزري الذهبية . وبعد أن يتجمعن على الساحل (يتراوح عددهن من ٨ إلى ١٢ أو أكثر) وهن بكامل زينتهن وقد أسدلن شعورهن (يفضل أن يكن من ذوات الشعر الطويل من أجل اللعب بالشعر الذي يطلق عليه اسم اللفح ، أو النعش بالشعر) . ويقوم البحارة بحملهن إلى أحد القوارب الراسية على الشاطيء ويجدفون بهن إلى السفن المحتفي بها حتى لا تتبلل ملابسهن بمياه البحر .



فتاة متزينة بأنواع عديدة من الحلي الذهبية . منها قصة السعد وهي من حلي الرأس ، والكواشي التي تعتبر من أغلى حلي الأذن ، والمرتعشة وهي من حلي الصدر ، وكانت الفتيات المشاركات في احتفال الوشار يتزين بها وبأنواع أخرى من الحلي .
- المصدر : مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية .



« ثوب النشـــل » أحـد أهم ملابس المنـاسبات والأعياد عند الفتاة والمرأة الخليجية . وكـانت الفتيات يلبسنـه أثناء مشاركتهن في احتفال الوشار . المصـــدر : مركـــز الـــتراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية .

بعـد أن تصعـد الفتيات إلى السفينة يقفن فوق الفنة ويأمرهم الرجال بالغناء احتفاء بالسفينة الموشرة حديثاً فيقمن بالغناء وقد شبكن أيديهن ويتمايلن يمنـة ويسرة ويضربن بأقدامهن سطح الفنة ويسمى هذا النوع من الرقص « الرديح » بمرافقة إيقاع الطبول في بعض الأحيان . ويغنين هذه الأغنية في تلك المناسبة :

ياشـور الــزين(٥) بــارك له
ياشـور الــزين بـــارك لــه
حصـت(٦) بألــفـين بـارك لــه

عساك توشرها[٧] وتوشر غيرها
عساك توشرها على العدواني
حول[٨] لها فلان من أول تبه[٩]
حول لها فلان بتسميحة[١٠] أمره
يا شور الزين بارك له
حصتٍ بألفين بارك له

بهذه الكلمات تدشن الفتيات السفينة الجديدة . متمنيات لمالكها التوفيق في موسمه وأن تتبارك سفينته ويجد لؤلؤة ثمينة تساوي قيمتها ألفين روبية (ويعتبر هذا المبلغ كبيراً في تلك الفترة) . وأن يحتفل بتدشين هذه السفينة وغيرها ويكيد الأعداء والحاسدين . وأن يتوفق بحارتها بإلتقاط المحارة التي تحتوي عليها تلك اللؤلؤة الثمينة من أول غطسة يقومون بها إلى الأعماق .



مجموعة متنوعة الأحجام من الآلئ الثمينة التي
تزخر بها مصائد اللؤلؤ في الخليج
- المصدر : مركز التراث الشعبي لدول
مجلس التعاون لدول الخليج العربية

وكان الهدف الأساسي من إقامة الاحتفال مباركة السفينة بواسطة ركوب الفتيات الجميلات المتزينات والغناء فيها والدعاء لصاحبها بأن تجلب له الخير والربح الوفير. وكان يسود اعتقاد بأن إقامة هذا الطقس الاحتفالي بمناسبة وَشَرْ السفينة الجديدة سيؤدي إلى حصولهم على دانه أو حصة أو حصباه (جميعها تعتبر من أفضل أنواع اللؤلؤ الثمين)[11] تشبه تلك الفتيات بجمالهن وبهائهن . ولذلك تذبح الذبائح احتفاء بهن ، ويتناولن الغداء على ظهر السفينة . ويقوم البحارة بالخطف بالأشرعة ، والعدة تقرع الطبول والفتيات يغنين الأغنية السابقة وتتجول السفينة في الميناء حتى تصل إلى الجزيرة الواقعة قبالة ساحل مدينة الدوحة ثم يعودون بهن مرة أخرى إلى « المرسى » .

وفي بعض الأحيان تركب الفتيات على الفنة والسفينة لا تزال على الشاطىء وأثناء لف حبل الدام حولها والذي ستسحب بواسطته إلى الماء ، تغني الفتيات تلك الأغنية . وقد يزدن عليها

ياشور الزين بارك له
ياشور الزين بارك له
حصت بألفين بارك له
سبع دانات دانتين ودانه
سبع دانات دانتين ودانه

ويلفحن بشعرهن و « البراره » يسحبون أو يجرون السفينة وهم يغنون ويصفقون والعدة[12] تقرع الطبول والطوس حتى تصل إلى المياه العميقة . بعد ذلك يقومون بإعادة الفتيات إلى الشاطىء بواسطة القلص .

ويحتوي ذلك الاحتفال على عدة مضامين منها ما هو اقتصادي واجتماعي وآخر ثقافي . أما المضمون الاقتصادي فيتمثل في كون السفينة هي الوسيلة أو الأداة الأساسية في صيد اللؤلؤ ، لذلك فإن الطواش أو النوخذا عندما يمتلك سفينة أو أكثر فإن هذا يتيح له تسيير رحلات غوص أكثر ، فتتطور بذلك تجارته .

وبالإضافة إلى الأهمية الاقتصادية التي تمثلها ملكية السفينة وما تعكسه من تحسن المستوى الاقتصادي للمالك ، فإن هناك رموزاً ومعان اجتماعية يكتسبها من خلال تلك الملكية . فبتطور أوضاعه الاقتصادية تتطور مكانته الاجتماعية وسط جماعته فهو الشخص الذي يستطيع أن يوظف أبناء جماعته كعمال على ظهر السفينة ويمنحهم الأموال التي يحتاجونها فتعلو مكانته بينهم . وفي بعض الأحيان ترتفع مكانته الاقتصادية والاجتماعية وسط مدينته ، وبعضهم وصل إلى احتلال تلك المكانة وسط البلاد كلها وقد تطير شهرته وسمعته بين الأقاليم والأمارات الأخرى . وقد حدث ذلك لبعض تجار الغوص الذي ساهموا في رسم الحياة الاقتصادية في تلك الفترة .

أما المضمون الثقافي الذي يحتوي عليه ذلك الاحتفال فإنه يظهر من خلال المعتقدات التي يؤمن بها أفراد المجتمع آنذاك . وفي هذا المجال فإنها تنبع من الأهمية الاقتصادية الحيوية التي يلقيها السكان على عملية الغوص وتوقعاتهم في تحسين معيشتهم من خلال صيد اللؤلؤ والمتاجرة به .

تلك التوقعات أدت إلى تبني أبناء المجتمع لمعتقدات شعبية يؤمنون أنها سوف تساهم في تحقيق آمالهم . لذلك فإن أمل النوخذا بأن يجني بحارته لؤلؤة ثمينة قد يتحقق من خلال مباركة الفتيات الجميلات لسفينته بركوبهن فيها وغنائهن والدعاء له من خلال تلك الأغاني . وعلى ذلك سوف يتوفق البحارة باصطياد اللؤلؤة الثمينة الشبيهة بتلك الفتيات الجميلات[١٣] .

هذا بالإضافة إلى معتقدات أخرى برزت في الثقافة المحلية ، وفرضتها الرغبات القوية في الحصول على اللآلىء الثمينة ، من تلك المعتقدات الشائعة آنذاك ذبح خروف ودفق دماءه في وسط السفينة قبل « اليرار » أي سحبها من الشاطىء إلى البحر . وذلك حتى تتبارك وتواجه موسما جيداً . كما يمارس البحارة طقساً آخر (وإن كان بصورة أقل عن الطقوس السابقة) يتمثل في

قيامهم بمد أشرعة السفينة على الأرض ثم تقوم أحدى النساء بالمرور من فوقه لكي يتبارك موسمهم ذاك . ولقد كانت النساء العقيمات يقمن أساساً بالخطو فوق إحدى السفن وهو توشر (أي تصنع) أو فوق أحد الأشرعة المدودة من أجل أن يشفين من العقم وهي معتقدات شعبية كانت سائدة في تلك الفترة .

مع ذلك فإننا إذا تأملنا تلك المعتقدات فإننا نجد أنها ناجمة عن العلاقة القوية ما بين السكان والبيئة المحيطة بهم . هذا بالإضافة إلى أنها قد تكون أحيانـاً محض صدفة فيربط الناس ما بين الحدث ونتائج أخرى تعقبه سواء كانت سارة أو ضارة فيتفاءلون بذلك الحدث أو يتشاءمون منه حسب نوعية النتيجة . كما أن المعتقد يكتسب قوته من حيث أهمية الحدث والتي تنعكس على درجة تطبيق الطقس والاحتفال المرافق له وعلى درجة مشاركة السكان في ذلك الاحتفال . لذلك فإن الاحتفال بالوشار (السفينة الجديدة) يتخذ أهمية أكـبر من ناحية المغـزى الاقتصادي الاجتماعي ، ومن ناحية درجة المشاركة الاجتماعية عن المعتقدات والممارسات الأخرى التي ذكرناها والتي لا يشترط فيها أن تكون السفينة جديدة . وإنما يكون ذلك فقط لمجرد مباركة الموسم لذلك فإنها لا تتخذ صفة الجماعية كما يحدث في احتفال الوشار ، فسكان الحي أو المنـطقة جميعهم يشاركون في هذا الاحتفال ويسمحون لفتياتهم بالمشاركة في الرقص والغناء على ظهر السفينة المحتفى بها ، فالفرحة عامة بذلك الحدث الاقتصادي المهم بالنسبة لظروف السكان آنذاك .

ولقـد ساهم نسق القرابة Kinship System السائد في تلك الفترة والذي يستند على علاقات قرابية متشابكة أفرزها البناء الاجتماعي في تدعيم المظهر الجمعي والتجـانس الشـديد والتلقـائية في الأفعال والعادات الاجتماعية بين السكان . ولقد برزت بشكل كبير في احتفالاتهم بالمناسبات المختلفة ، وفي مظاهر وأنماط التعاون الاقتصادي والاجتماعي التي كانت سائدة في مجتمع الغوص .

ويتضمن احتفال الوشار أشكالاً من الثقافة ، والتقاليد الشعبية Folktradition السائدة آنذاك فلم يقتصر على المعتقد الشعبي فقط ، إنما إضافة إلى ذلك كانت تمارس فيه الأغنية الشعبية والرقص الشعبي . هذا وقد يتخذ حفل الوشار في بعض الأحيان شكلاً آخر فيكون عبارة عن إقامة احتفال يتمثل في غناء فن (السنقلي) وهو أحد فنون الغناء البحري ، حيث تقوم العدة وبمشاركة أحد أعضاء أحد الدور (سنتحدث عنها بعد قليل) وبحارة السفينة ومن يرغب من السكان بإقامة الاحتفال تحت السفينة الجاثمة على الشاطىء ، وتنحر الذبائح ، ويستمر الاحتفال حتى يتم إنزال السفينة الجديدة إلى البحر .

ونظراً لأهمية ملكية السفينة الجديدة وما تحتويه من معاني اجتماعية واقتصادية عميقة ، نجد أن تلك الأهمية قد انعكست على الثقافة والمأثورات الشفهية وخاصة في الشعر ، الذي برزت فيه قيم الفخر بالسفينة ، والوصف الدقيق لمتانتها وقوة سيرها وهي تمخر عباب البحر وروعة أشرعتها الضخمة . . إلخ . وهذا الشاعر[١٤] يفتخر في الأبيات الآتية بسفينته الوشار (الجديدة) التي تسير بقوة اشرعتها إذا هب النسيم ويصدر صدرها صوتاً يشبه الصريم وهو يشق البحر أثناء اندفاعها .

ياندييي[١٥] دن[١٦] لي ماشور[١٧] ساج[١٨]
يقطع اللجه[١٩] إلى هب النسيم
خاطف[٢٠] بالعود[٢١] ثارت له واج[٢٢]
عند صدره من مسيره له صريم

وكانت كل قبيلة أو عائلة تفتخر بما تملكه من سفن وتطلق مسميات مختلفة عليها . ويلاحظ أن تلك الأسماء قد تكون مذكرة أو مؤنثة» ومع الاستقصاء لم نجد أن ذلك يرجع إلى سبب معين كأن يكون تابعاً لنوع السفينة ، وإنما كان ذلك نابعاً فقط من الرغبات الشخصية . وإن غلب على

مسميات السفن التي من نوع « السنبــوق » التـذكـير (مقـديم ، عنـاد ، بوكـربـان ، المنجب ، الجن ، مسـاعـد ، القني ، الفتح) وهي من أشهر « السنابيق » في تاريخ قطر وأضخمها ، ومع ذلك فإنها أي السنابيق لا تعدم أسـماء مؤنثـة وإن كان ذلك أقل بكثير من التذكير ، كذلك الوضع بالنسبة للسفن من نوع « الجيلبوت » فنجد أسماء لسفن شهيرة مثل (منيره ، برزه ، الحمره ، الوسمية ، أم النمل ، الفرس ، الملاية ، البشرى) مع ذلك فهناك أسماء مذكرة عديدة لسفن شهيرة من نوع الجيلبوت مثل (رياض ، الطواش ، كامل الزين ، القايد ، النابند ، تيسير ، المنور ، الصير . . إلخ) . والأسماء المذكورة السابقة هي لأشهر سفن صيد اللؤلؤ وأكبرها حجماً في قطر[*] .

كما أن الأمر لا يقتصر على إطلاق الأسماء ، فقط التي يكفي ذكرها لمعرفة من يملكها من التجار أو من القبائل بل نجد أن الثقافة المحلية تحتوي على كثـير من الأشعـار التي تفتخـر بتلك السفن وقـد قيلت أما بمناسبة وشرها (صناعتها) أو بمناسبة إقلاعها في بداية الموسم إلى مغاصات اللؤلؤ فتهيض قريحة الشاعر عند رؤيته لتلك السفينة التي يملكها أو يملكها أحد أقربائه أو قبيلته أو أحد أصدقائه . وكثيراً ما كان الشاعر يمتدح السفينة ليتقرب من مالكها[٢٣] .

يانــديني دني من طيب لفـان[٢٤]
عيل[٢٥] المــسـير شراعــه الــعــود كاســيه
وانــصــى (. . .) فاعــل كل الإحــســان
بر وبــحــر بانــت رســومــه ومــواريه[٢٦]
من بنــدر الحــالــه[٢٧] إلى دار ما كان
ولم[٢٨] من الــســيلي[٢٩] وســحــب يزاغــيه

(*) انظر قائمة رقم (١) بأسماء أشهر السفن وقائمة رقم (٢) بأشهر ملاك السفن بالملاحق .

يصف الشاعر سفينة صديقه أو الشخص الذي يرغب في زيارته وهي تمخر مسرعة في مياه البحر وقد كساها شراعها الكبير . ثم يمضي في مدح مالكها الذي تجلت مناقبه في البر والبحر . ثم يعود إلى وصف سير السفينة المذكورة وهي في طريقها وقد ساعفتها الريح الجنوبية المواتية التي بالإضافة إلى دفعها لأشرعة السفينة تساعد على تشكل السحب في السماء .

ويظهر الافتخار بالسفن في الأشعار في مناسبات عديدة أهمها على الإطلاق مناسبة توديع الأسطول المنطلق إلى مغاصات اللؤلؤ . وكثيراً ما كانت النسوة يشاركن في صياغة الأشعار في تلك المناسبة وذلك يعود إلى أن أولادهن وأزواجهن سيغيبون عنهن فترة طويلة يتعرضون فيها لمخاطر عديدة مما يثير أشجانهن .

فتقول إحدى السيدات تصف سفينة أهلها وهي مقلعةٌ ، وكأنها قد نبتت لها أجنحة عندما خطفت بشراعها الكبير من سرعة سيرها :

برزان[٣٠] سوا له ينحات[٣١] بيطير
لي من خطف بالعود سوا المناكير
والله يجيره من جميع المقادير

وهناك نماذج أخرى سوف نذكرها عند التحدث عن يوم « الركبة » أي اليوم الذي تقلع فيه السفن مبتدئة موسم الغوص العود . الذي تقام فيه احتفالات كبيرة تترافق مع إنزال السفن التي ستشارك في ذلك الموسم من الشاطىء حيث استقرت منذ الموسم الفائت إلى مياه البحر من جديد .

لقد كانت تلك المناسبة حدثاً اقتصادياً اجتماعياً ثقافياً رئيسياً في المجتمع . يبدأ فيه نواخذة وملاك السفن بالاستعداد للموسم عن طريق الاتفاق مع « القلاليف[٣٢] » للقيام بفحص السفن للتأكد من صلاحيتها للإبحار والقيام بإصلاح الأجزاء المكسورة أو المعطوبة فيها وتجديدها إذا لزم

الأمر . والتأكد من اكتمال عدد مجاديفها وسلامة صواريها ودستورها وجميع آلاتها وإدراتها .

بعد ذلك يقوم النوخذا بشراء الزيوت ومواد الدهان والأدوات التي ستستخدم في هب ودهان السفينة ، كذلك يقوم بشراء الفتائل القطنية التي تسد بها الفجوات والفتحات في السفينة والفنطاس ، ويشتري الحبال اللازمة ويعد الأشرعة التي هي عبارة عن قماش قطني سميك يجلب من الهند ، فيقومون بمدها على الأرض ثم يقوم « يزواه » أي بحارته الذين يعملون معه في كل موسم بخياطة الأجزاء الممزقة منه ورفوها والتأكد من صلاحيتها ومتانتها .

وعادة يكون « اليرار[٣٣] . قبل « الدشة » – أي بدء الموسم – بحوالي ١٥ يوماً لأن إعداد وتجهيز السفينة للمشاركة في الموسم تمر بمراحل متنوعة سوف نتعرض لها بالتفصيل . وعندما يقترب موعد « اليرار » تقوم مجموعة من بحارة كل سفينة برئاسة « المجدمي » وهو بمثابة رئيس العمال والمدير المباشر للعمل على ظهر السفينة – بعد النوخذا – بزيارة السفينة التي سيعملون عليها وتفقدها وتجهيز « الطعوم[٣٤] » التي ستستخدم أثناء « اليرار » . كذلك يجهز الدقل والدستور لاستعمالها في موازنة السفينة أثناء سحبها .

حين تكتمل الاستعدادات يحدد « النوخذا » اليوم الذي سوف يتم فيه سحب السفينة إلى البحر أو إلى الراكي[٣٥] – أو الراجي فيقال : اليوم بيرّون محمل[٣٦] فلان أو بيركونه – برجونه – . أو فلان يرّ محمله على الراجي ويتحدد ذلك اليوم حسب ظروف أو عوامل المد، والجزر . ويفضل أن تجر السفينة إلى البحر في وقت المد أو (السقي) حيث تسهل عملية التحكم في اتجاهها والمحافظة عليها من الانحراف والوقوع على جانبها مما قد يؤذيها أو يعطبها .

وكذلك الحال عند عملية سحبها إلى الساحل الذي يفضل أن يكون وقت المد الشديد والذي يطلق عليه في اللهجة المحلية - الحمل - ويكون إما في بداية الشهر فيقال - حمل رأس - نسبة إلى رأس الشهر أو في منتصفه . فالسكان بسبب علاقتهم اليومية بالبحر يعرفون مواعيد المد والجزر بدقة شديدة . أما أيام المد العادية فيقولون « رشة المايه » أو الموجة (أي تكون في حالة المد) في يوم كذا . وفي السواحل الضحلة جداً مثل السواحل الشمالية فإن السكان ينتظرون أيام الحمل الذي يتكرر مرتين في الشهر من أجل سحب سفنهم من وإلى الساحل وإلا كانت العملية شاقة جداً بسبب بعد المياه من الساحل في زمن انحسار مياه البحر .

كذلك فإن لكل مجموعة من السفن تنتمي لأحد الفرجان (الأحياء) أو قبيلة ما منطقة ترجى فيها وتسمى (النقعة أو الخورة) يتم فيها تطبيع السفينة (أي إغراقها) حتى تمتلأ بالمياه ، بعد أن تجر السفينة في زمن المد فتترك يومين أو ثلاثة حتى تترسب بالمياه في النقعة أو الخورة ، ولقد كانت هناك خورة أو نقعة شهيرة أمام ساحل مدينة الدوحة وذلك نتيجة كبر حجمها واتساعها بحيث كانت تستوعب مجموعة كبيرة من السفن تابعة لعدة فرجان (أحياء) وعدة قبائل (النصر والعسيري والبدر) وتسمى (خورة أم إلياس) .

وعندما يتأكد النوخذا من موعد رشة الموجة يقوم بجولة على الدور والمجالس ويدعو أعضاءها للمشاركة في « يرار » سفينته قائلاً لهم : « باجر بأرجي السنبوق أو الجيلبوت الفلاني » . ويحدد لهم الموعد إما الصباح أو بعد الظهر حسب ظروف المد والجزر .

وقد يدعو دارا أو أكثر للمشاركة في اليرار وذلك حسب حجم السفينة التي يريد أن يرجيها . وهنا لابد أن نتحدث قليلاً عن الدور أو المجالس ممن تتكون ، وما هي وظيفتها أو دورها في احتفالات « اليرار » .

وكانت الدار - التي يطلق عليها أحياناً اسم المجلس أو المصبنة - عبارة عن غرفة تجتمع فيها مجموعة من الرجال والشباب يمارسون العزف والغناء ، وتسمى الدار أو المجلس أو المصبنة نسبة إلى كونهم من فئة الشباب ، ولقد كانوا يطلقون تسمية « الصبّيان » أيضاً على فئة الشباب والفتية من صغار السن ، وقد تطلق تلك التسمية على الكبار إذا كانوا من الفئة التي تلقى على كاهلها أداء المهام الصعبة والثقيلة تشجيعاً لهم بأنهم يملكون القوة والفتوة لأدائها .

ولقد ظهرت تلك المصابن في أغلب المدن أو المراكز الحضرية التي يمارس سكانها أنشطة الغوص ، وخاصة في المدن التي ترتفع بها نسبة السكان ، لأن الدور لا تظهر إلا بوجود نسبة كبيرة من الشباب ، ويلاحظ أن مدن الشمال تقل بها المصابن بسبب ضآلة حجم السكان بها بعكس الدوحة والخور والوكرة حيث تمثل أكبر المدن الساحلية في قطر في القرن الحالي . هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى أهمها أن السفن الضخمة موجودة في المدن الكبيرة بسبب تركز كبار التجار فيها في حين أن المدن الصغيرة تقل بها السفن الكبيرة وبالتالي فهي تتبع نظام سفن « الخماميس » الذي يناسبها والتي لا تحتاج إلى عمالة كبيرة بسبب صغر حجمها .

وبازدهار مهنة الغوص وتركز القوى الاقتصادية الاجتماعية في المدن المذكورة أعلاه ازدهرت الأعمال التي كان يقوم بها أعضاء تلك الدور وخاصة في مجال الاحتفالات الجماعية التي تصحب عمليات إنزال السفن ، وفي المشاركة في موسم الغوص، مما ساهم في ظهور العديد من الدور وعدد كبير من النهامين والأزقرت[*] .

(*) أنظر قائمة رقم (٤) ، بأشهر الدور في مدينة الدوحة والخور ، وكذلك قائمة رقم (٣) ، بأشهر النهامين بها وكذلك كبراء الأزقرت بالملاحق .

وكان لكل دار كبير (رئيس) ويقال له كبير الأزقرت[٣٧] ، ويطلق عليه اسم « رئيس البر » في احتفالات اليرار .

وتقام تلك الاحتفالات في فترة زمنية محددة تستمر حوالي أسبوعين يتم خلالها إنزال جميع السفن من السواحل إلى البحر . وبما أن عدد السفن كان كبيراً ، فلنا أن نتصور عدد الاحتفالات التي تقام بهذه المناسبة ، وبذلك فإنها كانت فترة ازدهار لأعمال الفرق أو العديد[٣٨] . حيث كان بإمكان كل فرقة أن تشارك في سحب ٣ أو ٤ سفن يومياً خاصة السفن الصغيرة أو المتوسطة الحجم التي يكفي لسحبها حوالي ٨٠ رجلاً . لذلك فقد كان بإمكان الدار الكبيرة أو الشهيرة التي يتراوح عدد أعضائها من ٧٠ إلى ٨٠ عضواً ويتوفر بها ثلاثة نهامين أو أكثر مثل (دار فري ، دار ميلي ، بومايد) أن تتولى العملية بنفسها . إلا أن السفن السلفية الضخمة تحتاج إلى عدد أكبر مما توفره دار أو مصبنة واحدة من أجل سحبها إلى البحر . لذلك كان يتم الاتفاق مع عدة فرق أو دور للمشاركة في ذلك ، وخاصة عند سحب سفن مثل « مقديم » الذي كانت تشترك في إنزاله معظم « العديد » الموجودة في الدوحة ، ولا يقتصر الأمر عليهم بل وتشارك فرق من الشمال ، وكانت نسبة كبيرة من السكان تشهد عملية « يرار مقديم » حيث يقام حفل كبير . ويتعاون على الغناء نهامين تلك الفرق بالإضافة إلى النهامين الشهيرين وهم ميلي الغانم ، سالمين ولد أم قراض ، دهام رمضان ، وكان يشارك في سحب « مقديم » من الشاطىء إلى مياه البحر أكثر من ثلاثمئة رجل فكانت مناسبة كبيرة تنحر خلالها الذبائح إكراماً للمشاركين بتقديم الغذاء لهم . فكان يوماً كبيراً تشهده مدينة الدوحة تجرى خلاله تلك الاحتفالات أمام القلعة على ساحل البحر .

كذلك فإن في بعض المدن الصغيرة التي لا توجد بها مصابن وتوجد بها نسبة لا بأس بها من السفن فإن الأهالي هم الذين يقومون بسحب السفن إلى البحر ويقوم النهامون الموجودون في المنطقة أو المركز الحضري بالمشاركة في

الغناء أثناء إقامة الاحتفال ، ولكنه لا يكون بالمستوى الذي يتم به الاحتفال في المدن الكبيرة أو في الحالة التي تشارك في الاحتفال دار أو مجلس لذلك فإن بعض القرى أو المدن الحضرية التي لا توجد بها دور أو مجالس وتتميز بوفرة عدد السفن وارتفاع المستوى الاقتصادي مثل « الضعاين » فإن السكان أو ملاك السفن يلجئون إلى دعوة بعض « العديد » أي الفرق لإقامة احتفالات اليرار من مدينة الدوحة أو الخور ، فتتواجد تلك الفرق قبل اليرار بيومين أو ثلاثة ومعهم أدواتهم الموسيقية (من طبول وطارات وطوس) ويقضون تلك الأيام في الغناء حتى يتم إنزال جميع السفن من الساحل إلى البحر .

ولقد كانت احتفالات اليرار أحد مظاهر التعاون السائدة في المجتمع آنذاك . حيث يقوم « المجدمي » بإعلان موعد اليرار عند اجتماع الناس في الجامع لأداء الصلاة أو يقوم بالوقوف قرب السفينة ويبدأ بالمناداة طالباً المعونة من الأهالي للمشاركة في إنزال السفينة[٣٩] . خاصة في حالة عدم و جود مصابن أو بسبب انشغالهم في إنزال السفن الكبيرة ومن الملاحظ أن كل تاجر كبير توجد مصابن ودورو تابعة له يقومون بإنزال سفنه ويعملون فوقها كبحارة أثناء الموسم . أما بالنسبة للسفن الصغيرة فإن بحارتها لا يزيدون في المتوسط عن ٢٥ بحاراً لذلك فهم لا يستطيعون بمفردهم إنزال سفينتهم لذلك يلجأ النوخذة إلى تأجير مصبنه - في أغلب الأحوال دعوتها - أو يقوم بدعوة السكان أو أهل الفريج بالذات للمشاركة ، كذلك الحال بالنسبة للسفن الضخمة والتي قد يصل عدد بحارتها إلى ١٢٠ بحاراً وعلى الرغم من أنهم يشكلون قوة لا بأس بها ، فأنهم أيضاً يحتاجون إلى مساعدة من السكان لذلك نجد أن أغلب أهل الدور تشارك في سحبها - مثلما شرحنا قبل قليل .

وفي الموعد المحدد لليرار أو سحب السفينة إلى البحر يتجمع أعضاء كل مصبنة - ويطلق عليهم حينئذ اسم « اليراره » نسبة إلى المهمة التي سيقومون بها - وقد استعدوا للمهمة بلبس الملابس الخاصة باليرار - في الواقع هي

ليست خاصة ولكن تلبس بطريقة خاصة - وهي عبارة عن الثوب « الدمي[٤٠] » - الذي هو أحد سمات ملابس « الازقرت » أو « البحارة » والذي يكون من سماته أيضاً طول الذيل - وقد ربطوا من فوقه « الوزار » وأما الغترة (غطاء الرأس) فإنها لا تسدل على الكتوف كما يحدث في الأوقات العادية وإنما تلف حول الرأس ويقال لهذا الشكل « الترينبة » فالأزقرت لا يلبسون العقال الذي هو أحد سمات ملابس الوجهاء وكبار السن الذين سن سماتهم أيضاً لبس الثوب الشلحات الأبيض والفضفاض .



مجموعة من يرارة السفن وهم في طريقهم إلى الساحل للمشاركة في سحب أو يرار أحد السفن وهم يغنون الشيلات السيفية ويتقدمهم « كبير الأزقرت » أو رئيس البر الذي سيرأس وينظم عملية اليرار وخلفه أعضاء الدار أو « المصبنه » وهم يضربون بالدفوف ويردون وراء الكبير (أو رئيس الدار) أغاني خاصة بالمناسبة .

المصدر : مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية

بعـد التجمـع يتجـه البحـارة إلى ساحـل البحر تتقدمهم عدتهم وهم يضربـون الـدفـوف ويقـرعون الطبول والطوس وهم يغنون . . « الشيلات السيفية » ويمـرون في طريقهم بالأسـواق والفـرجان حتى يصلوا إلى مكان السفينـة ، ويخـرج السكان عند سماعهم صوت الطبول والغناء ويمدون يد العون للبحارة في سحب السفينة إلى البحر .

ولقد كان « الفن السيفي » أحد الفنون المرتبطة بذلك الاحتفال ويؤديه البحارة طوال الطريق ما بين الدار أو مقر الفرقة إلى ساحل البحر فإذا وصلوا السفينة المقصودة يتوقفون عن أداء الشيلات السيفية ويبدأون في غناء فن آخر أو فنون أخرى - حسب ما سنرى - ولها صلة مباشرة بالفنون البحرية . أما الفن السيفي : فهو فن خاص بذاته وقريب الشبه بفن الخماري والعاشوري من حيث النزعة والجمل اللحنية وأيضاً في وجود مغني يقوم بالغناء للمجموعة (ويقـال له السراي أو يسري للمجموعة) ويكون في المقدمة وهم يرددون وراءه جملة واحدة تتكرر كلما غنى المؤدي أو الذي يسري لهم الأغنية مثال ذلك :

السراي : ولا إلــه ؟ إلا الله
يرد البحارة : ولا إلــه إلا الله
السراي : محمد يارسول الله
البحارة : ولا إلــه إلا الله

وتستمر الأغنية هكذا من حيث الأداء :

محمد زين كله زين
مولود الضحى الإثنين
محمد زين كله زين
ولا إلــه إلا الله

وتعتبر هذه الأغنية بمثابة افتتاحية للشيلات السيفية التي يؤديها اليرارة في طريقهم إلى الساحل . ثم يغنون أغنيات أخرى مثل أغنية « حالي حال حالي حال - ايش أسوي ايش احتال » و « ياذا الحمام اللي لعب بغصون - واشفيك على عيني تبجيها » و « شدو الضعاين يافهد من يوم الإثنين » . . . وهكذا حتى يصلوا إلى السفينة المقصودة . ويلاحظ أن المغني في الفن السيفي لا يرفع عقيرته كما يفعل النهام عندما ينهم بالفنون البحرية .

ويلاحظ بشكل عام على الفنون المختلفة ومن ضمنها الشيلات السيفية أن هناك أغاني مخصصة لكل فن من تلك الفنون وكذلك افتتاحيات معينة وتنزيلات خاصة . مما يحتاج إلى عمليات تصنيف دقيقة من الدارسين لهذه الفنون الشعبية في منطقة الخليج العربي . إذ إن التخصص في الفنون المستخدمة في المناسبات المختلفة - كما سنرى - يشير إلى تنوع وثراء الثقافة الخليجية مما أدى إلى ظهور فنون مختلفة مرتبطة بمناسبات معينة[٤١] .

ومن وجهة نظرنا فإن تسمية ذلك الفن (بالفن السيفي) هي تفرقة ابتدعها المهتمون آنذاك بالفنون والممارسون - لها عن الفنون البحرية ذات الصلة بالعمل على ظهر السفينة مثل أغاني الخطف بالأشرعة (الأقلاع) وسحب المرساه (البريخة) وأثناء التجديف وكذلك عملية إنزال السفن إلى البحر حيث سنرى كيف تتوقف العدة عن غناء « السيفي » حين تبدأ العمل في سحب السفينة لتبدأ في غناء « الدواري والمخومس والسنقلي » وكلها ألحان تتبع الفنون البحرية السائدة في تلك الفترة .

هذا بالإضافة إلى أن كلمة سيفي نسبة إلى السيف ومن المعروف أن السيف هو شاطىء البحر ، وهي كلمة فصيحة . وعندما يقولون فن سيفي فإن معناه أغاني ذات صلة بالبر وليس بالبحر . والخماري واللعبوني أيضاً لا يعتبران من الفنون البحرية ولا يؤديهما البحارة أثناء العمل وإنما قد يؤديان

بصورة محدودة في أوقات السمر على ظهر السفينة أو عندما ترسو (تبندر) في أحد الجزر المنتشرة في مياه الخليج قرب السواحل ، في حين أن جل ممارستها تتم في حفلات الزفاف والمناسبات الاجتماعية المختلفة .

كذلك فإن الأداء الجماعي للأغاني في الشيلات السيفية يناسب تحرك الناس في مجموعات فليس من المناسب أن ينهم النهام وهو يسير إذ أن غناءه ذاك يحتاج إلى مجهود كبير وتركيز لا تتيحه الحركة المستمرة أو المشي ، كذلك فإن الغناء الجماعي يساهم في إشاعة جو حماسي أكبر في الحشود ، مما يساعد في تحقيق الهدف المنشود وهو أن يخرج الناس ويقبلوا إلى المجموعة ليشاركوها بالغناء ومن ثم يتم اشتراكهم بصورة عفوية في عملية إنزال السفينة .

ويبرز ذلك الدور بصورة أساسية في الشيلات الجماعية التي تؤدى دائماً أثناء الحركة الجماعية على ظهر السفينة وفي الأعمال الأخرى التي تحتاج إلى أداء جماعي وبالذات أثناء الانتقال من أداء عمل لأداء عمل آخر ، وليست العرضة بعيدة عن ذلك حيث تتوفر فيها الحركة الجماعية وأن تخلت عن وظيفتها الأساسية في حركة الحشود الحربية لتصبح تقليداً احتفالياً في الأعياد وحفلات الزفاف . فعلى الرغم من تجاوز الزمن لوظيفتها الحربية إلا أن وظيفتها الثقافية مازالت سائدة حتى يومنا الحاضر . في حين أن الشيلات الجماعية الأخرى والمرتبطة بالأعمال والمواقف العملية أو المهنية قد اندثرت باندثار تلك الأعمال . وظلت معظم الفنون التي لا ترتبط بمهن معينة مثل السامري والخماري والعاشوري وبقايا متناثرة من أغاني الفن السيفي تؤدى وتستخدم حتى الآن . غير أن أسلوب أدائها لا يمارس كما كان في الماضي ، واقتصرت على حفلات الزفاف وإن بدأ الزمن يتخطاها حتى في هذا المجال .

نموذج لأغنية من الفن السيفي كان « اليرارة » يؤدونها وهم في طريقهم إلى السيف :

الله الـيوم يامـغـني الـفـقـير

فز قلب غدى مني وراح

وتـوّ يدعـي خلي قتـيل

وّيدْ من طعـونهم بالأرمـاح

سايمـين الهـوا يا من يبـيع

يشـترون الهـوا ياهـل الـرفاع

عنـدهم ياعلي صفراً الصنيع

سنهـا يا على وقـم للرفـاع

وكانوا يؤدون غناءهم ذاك بصوت جماعي أثناء سيرهم مع إيقاع الطبول والـدفوف والطوس ، وكان أسلوبهم في الأداء يقترب كثيراً خاصة من ناحية الأداء الحـركي من أسلوب « المشية »[٤٢] أثناء أداء رقصة العرضة . كما أنها تشبه الخماري في وجود الشخص الذي يسري لهم[٤٣] . وأيضاً من ناحية وجود « كورس » يشارك في الغناء بصورة مستمرة حتى نهاية الأغنية وإن كان لا يزيد عن تكرار الشطر الأول من الأغنية المؤداة .

وهذه أغنية شهيرة من أغاني الفن السيفي :

شدوا الـضـعـاين يا هلي من يوم الإثـنـين

شلو بخـلي ورحـلـو ياحـر فرقـاه

ياخـوي يا ويـلاه من غاره الـبـين

قلبـي علي جمر الـغـضـى والـنـار تصـلاه

فالاحتفال بسحب السفن يعد مناسبة اقتصادية واجتماعية كبيرة فبالإضافة إلى أهمية « يرار السفن » من ناحية كونها إعـلانـا ببـدء المـوسم الاقتصادي الـرئيسي فإن السكـان كانوا يعتبرونها مهرجانا كبيراً في البلاد يستمتعون فيه بسماع الفنون المختلفة - في مجتمع تلعب فيه المناسبات الاقتصادية والاجتماعية

الدور الأساسي في أداء الأغاني وأنواع الرقص المختلفة - لذلك فإن النساء في بعض المدن أو بعض الأحياء السكنية يقمن بطبخ العشاء باكراً حتى يتمكن من مشاهدة احتفالات « البرار » التي كانت تقام في معظم الأحيان في فترة ما بعد الظهيرة نتيجة عدة ظروف مناخية ، فيتجمع الأهالي عند الشاطىء لمشاهدة « البرارة » وهم مقبلون يغنون الشيلات السيفية بألحانها الجميلة .

فإذا وصلت المجموعة إلى السفينة فإنها تقوم بغناء فاصل غنائي من فن الفجري البحري أو الدواري قبل أن يشرعوا في عملية سحب السفينة إلى مياه البحر . ودافعهم في ذلك كان الطرب أو حسب تعبيرهم « الهايس » أو المزاج و (مزاباه) أي إبراز قدراتهم أمام الآخرين فيستمرون فترة من الزمن في غنائهم ذاك وهم في أشد حالات الإنسجام .



البرارة وهم يغنون أحد التنزيلات الشهيرة
من فن الفجري البحري قبل البدء في سحب السفينة
المصدر : مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية .

فإذا غنوا فاصلاً من فن الفجري البحري فهم يبدأونه « بجرح » ، تليه « تنـزيله » وبعـدهـا « موال » أو « حدود » ويعقبهـا غناء من نوع الفجري العدساني . فيبدأ النهام بغنـاء الجرح بشكل منفرد وبدون مصاحبة أية أدوات إيقاعية ويكرر « اليرارة » وهم « الجواب أو اليواب حسب اللهجة المحلية » أو « الكـورس » هنا أجزاء من الكلمات التي يتغنى بها « النهام » الذي يدخل صوته فوق أصواتهم ليبدأ في غناء شطر جديد . . وهكذا . وهذا نموذج لجرح يؤدى في فن الفجري البحري[٤٤] :

النهام : أول بدينا وباسم الله سمينا

الجواب : ويلاه باسم الله سمينا

النهام : يارسول الله

الجواب : يالله

النهام : ثاني مجيلي على المختار صلينا

الجواب : ويـلاه

النهام : ويلاه صلينا ياعونة الله . على ولي الحوض ساجينا

الجواب : آه آه

النهام : محمد المصطفى صلى وسلم عليه

الجواب : ويـلاه

النهام : ويلاه علي ولي الحوض ساجينا

الجواب : ويلاه علي ولي الحوض ساجينا

يقفـل « الجـواب » غنـاءهم للجرح بترديد الشطر الأخير عدة مرات . ويمكن أن نلاحظ هنـا أن دور « الجواب » أو البحارة دور أساسي في هذه الأغنية وفي الأغاني الأخرى التي تنتمي إلى مجال الفنون البحرية بشكل عام كما سيظهر لنا فيما بعد .

بعد الانتهاء من « الجرح » تبدأ العدة بقرع أدواتها الايقاعية (الطبل والطوس) مرافقة لغناء المجموعة التي تقوم بأداء إحدى « التنزيلات » . مثل تنزيلة « خلي رماني في غميج[٤٥] بحوره » وبعدها يغني النهام أحد « المواويل » ثم يقوم نهام آخر بغناء فاصل من الفجري العدساني مثل :

يا حيف ظبـي سطىٰ بي
راعـي الهـجـن والمـعـني
وش حيلتي واحـتـيالي
من طول هجـره محني

والفجري البحري لا يؤدى أثناء أداء العمل وإنما تظهر استعمالاته في أوقات السمر كما رأينا هنا احتفالا بمناسبة « يرار السفن » .

هذا وفي معـظم الأحيان تقـوم العـدة بمصـاحبة « اليرارة » بأداء « الـدواري » قبل البدء في عملية « اليرار » . فيبدأ النهام بالغناء ويرد عليه « اليراره » بلازمة يكررونها أثناء نهمة الدواري[٤٦] .

هو يالله الهـادي
يالله الهـادي تهدينـا
هـو يالله الهـادي

تتكرر تلك الكلمات لفترة من الوقت من قبل النهام واليواب ثم يدخل الإيقاع على صوت المؤدين وهو عبارة عن صوت الطبل والدفوف والطاسة . عند ذلك يكرر النهام الكلمات السابقة ثم يدخل عليها كلمات غزلية بسيطة مثل :

والله وقـلب مشـقـى
والـبـحـر دونـه
الله الهـادي
هـولـو وتهـدينـا

يستمر الغناء لفترة طويلة بتكرار تلك الكلمات ويعلو الضجيج حتى لا يمكن تمييز صوت « النهام » من صوت « اليواب » . وبعد ذلك يتوقفون عن الغنـاء ويبدأون بتنظيم أنفسهم حول السفينة . التي تم تجهيزها بالطعوم، وهي القـطع الخشبية التي يستعان بها في عملية سحب السفينة والتي سوف تستخدم أثناء البرار وقد حفرت حفرة قريبة منها صب فيها زيت « الودج » لكي تدهن الطعوم منها قبل وضعها تحت السفينة حتى يسهل انزلاقها من فوقها . كما جهز حبل « الدام » السميك جداً ، وهو حبل خاص للاستخدام في هذه المناسبة أي سحب السفينة إلى البحر . أيضاً من ضمن الأدوات المهمة التي تستخدم في سحب السفينة « الميازين » المكونة من خشبتي الدقل والدستور .

يوزع العمل بين « البرارة » وكل جزء منهم توكل إليه مهمة معينة فهناك من يطاعم[٤٧] السفينـة (أي يضـع الطعوم تحتها) وهناك من يوازيها (أي يمسـك بالميازين) وأخـيراً مجمـوعـة الـبرارة التي توكـل إليهـا مهمة سحب السفينة . ثلاث مجموعات مهمة تتعاون في إنزال السفينة إلى البحر .

ويبـدأون عملهم بلف حبل « الدام » حول هيكل السفينة « البيص » ويعقد عند مقدمتها ، ومن تلك العقدة يخرج دامين (حبلان) فينقسم البرارة إلى قسمـين كل قسم يمسك بأحد الحبلين ، جماعة من الأمام وأخرى من الخلف . ويسحبونها من الأمام (أي من صدرها) هذا في « الرجيان » ، أي سحبها إلى البحر ويكون العكس أي من الخلف عند سحبها إلى « الميدف » أي مـن البحـر إلى الساحل بعد القفال ، أو انتهاء موسم الغوص .

ويعـرض الدستور والدقل فوق السفينة ويربطان بالحبال التي تثبت في الحلقات الموجودة على جانبي السفينة وعند طرف كل حبل مجموعة من الرجال تمسك به أثناء سحب السفينة حتى لا تميل إلى أحد جوانبها فتقع ، أي أن مهمتهم موازنـة السفينـة . وتـوكـل تلك المهمة إلى كبار السن . أما فريق

« الـطعوم » فيكون جاهزاً بتلك القطع الخشبية الضخمة وقد دهنت بزيت الـودج الـذي يسهـل حركـة هيكـل السفينة فوقها (أي فوق الطعم) هذا بالإضافة إلى مجموعة أخرى تقوم بصب المياه على « القفافي » - الحبال - حتى لا تشتد حرارتها نتيجة الاحتكاك والضغط الشديد فتنقطع .

وفي السفن الصغيرة الحجم لا تستخدم تلك الأساليب والأدوات السابقة أثناء سحب السفينة إذ أنهم يقومون بسحب السفينة على جنبها بعد أن توضع تحتهـا الطعوم وتربط بحبل الدام وتسحب إلى البحر وتكون العملية أسهل بكثـير وتتم في وقت قصـير . أما بالنسبة للسفن الكبيرة الحجم فإن الوضع يختلف إذ تحتـاج إلى مجهـود كبـير وعـدد ضخم من « الـيرارة » لكي يكون بإمكانهم سحبها من الساحل إلى مياه البحر .

ويستمر عملهم عدة ساعات حتى يتم الانتهاء من رجيانها (أي إنزالها إلى الراجي) . ويهمنا في هذا المجال عملية إنزال السفن السلفية الضخمة التي تتميز بالمظهر الاحتفالي الذي تهتم به الدراسة التي بين أيدينا ، حيث تشارك أعداد كبيرة من السكان في إقامة ذلك الاحتفال سواء في « اليرار » أو في الغناء أو حتى المشاهدة . وسوف نقوم بشرح تفاصيل الاحتفال المذكور .



البحارة أو « اليرارة » وهم يقومون بسحب أحد سفن الغوص الضخمة من نوع البتيل لإنزالها إلى مياه البحر

المصدر : مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية

بعد أن تركب الدامات والحقب وتثبت الميازين يقوم كبير اليرارة ويقال له « الجبـير » - يساعده ٣ أو ٤ بحارة - ومهمتهم تنظيم العمل - والجبير هو « رئيس البر » ورئيس الأزقرت مثل (ميلي الغانم ، بومايد ، فري العسيري) بقيادة عملية إنزال السفينة إلى الراجي فيصرخ قائلاً : بارز الدام . فيرد عليه اليرارة الممسكين بحبل الدام : نعم . عند ذلك يقول الجبير : يالله توكلوا على الله . فتنتظم صفوف اليرارة حول حبل الدام . وتقوم مجموعة بوضع قطعة خشبية وراء السفينـة تسـاعد على تثبيتها . وعلى الرغم من وجود عدة فرق مختلفة في بعض الأحيان إلا أن النظام والتعاون هو أساس العمل أثناء عملية « اليرار » وإلا فشلت العملية برمتها .

وفي البـداية تكون السفينة ملتصقة بالأرض بسبب الفترة الطويلة التي مرت عليها وهي قابعة على الساحل لذلك فإن اليرارة يبذلون جهداً كبيراً في البداية عند « السحبة أو الشدة الأولى لحبل الدام » فيقوم « الجبير » بالتأكد من أن كل شيء في مكانة وأن البحارة على أتم استعداد . حينئذ يأمرهم قائلاً : جبر عليه . أي كبروا على المحمل . عندئذ يبدأ البحارة بغناء تكبيرة جماعية تشبه الشيلة . فيغنون بصوت جماعي بطيء في البداية .

الـيرارة : هييه يالله والمـين . . هوليـا . بعـد ذلك يقومون بغناء هذه الـشيلة : طالبينـه صاحب اليوده . . . . طالبينـه صاحب اليوده . . وهم يسحبون حبل الدام ثلاث أو أربع سحبات قوية أثناء « تجبيرهم » فيطرقع الحبـل بين أيديهم وعندما تتحرك السفينة من مكانها وتمشي قليلاً يبدأ فريق الطعوم[٤٩] بسحب تلك القطع الخشبية المسماه بالطعوم وحملها بسرعة ووضعها أمام السفينة .

وعنـدمـا تتحرك السفينة نتيجة قيام اليرارة بسحبها بواسطة حبل الدام وتـزحلقهـا فوق الطعوم يقوم « الجبير » بالاستعانة بالنهام لكي ينظم العمل

ويخفف العنـاء عن البحارة فيأمره قائلاً : أنهم عليه ! فيبدأ بنهمة على لحن المخموس وهو أحد الألوان الغنائية التي تؤدي أثناء الخطفة بالشراع . فيبدأ النهام بالغناء بصوت منخفض فيهوّي على الحبل (هولو . . هولو) كما يهوّي على الطفل[٥٠] . ثم يرفع عقيرته بالغناء : صلاة ربي عليك يامحمد . . فيرد عليه « الـيرارة » بنحبة معينة يجاوبون بها على النهام وهي « هولو . . هييه » ودورهم هو دور « الكورس » في الرد على المغني . ويتميز دورهم بأنه يكون طوال النهمـة . ولا يقتصر ذلـك الـدور على كونهم « يواب » وإنـما دورهم الأساسي يتمثل في أداء العمل الموكل لهم أثناء ترديدهم لتلك النحبة . إذ أن إصـدارهم لتلك النحبة بأصواتهم يدل على قيامهم بسحب الحبل . ويكرر النهـام الكلمات السـابقـة « عليك يامحمد . . صلاة ربي عليك يامحمد » و « اليواب » يرددون « هولو . . . هيه » ثم تقوم العدة بالضرب على الأدوات الإيقـاعية ويستمـر الغنـاء والسفينـة تتحـرك وفريق الميازين والطعوم يؤدون عملهم . تتخللها فترات توقف يقوم فيها البحارة بالتصفيق بالكفوف ويقال « كف دواري » . وهو نوع من التصفيق المنظم يستخدم في أعمال « اليرار » خاصة بواسطة الحبال (كحبل الدام أو الخراب عند سحب المرساة على طريقة بريخـة دواري) مع ذلـك فإن المخمـوس بتميز بذلـك التنـظيم المدهش في التصفيق الـذي يقـال له « الهيمة » حيث لا يخطىء أحد من المشاركين في التصفيق أبداً .

فإذا انتهى النهام من أداء المخموس نهم « يالله بدينه » وهي نهمة خطفة أساساً ، ولكنها تستخدم في هذا الموقف أيضاً . ويرد اليرارة على النهام بنحبة معينة هي (هيه) أثناء أدائهم لمهمتهم .

هـولـو يالله بدينـه
صـلاة الـنـبـي قبـل لا بدي
هيليه يامـسلمـين صلوا على النبي

هولـــو الأزرق سبـــانـــي
هـــولـــو سـبـــاني يـانـــاس

. . وهكـذا تستمر عملية « البرار » يرافقها غناء النهام بمشاركة البرارة والعدة[٥١] . ودور النهام في « البرار » لا يقل أهمية عن أدوار الباقين فهو الذي يقوم بتنظيم عملهم بواسطة غنائه . وحتى أن العدة لا تشارك إلا بعد أن يبدأ غنائه النهام بغناء اللون الذي يختاره .

مع ذلـك فقـد يستعـاض عن النهمـة (بشيلات جماعية) مثل (هولو يامليه . . هولو يامليه) أو (هو يالله . . هو يالله) . وعندما تخفق السفينة - تميل أو تنحرف من فوق الطعوم أو تسقط مقدمتها إلى الأمام - فإن البرارة ينتهزون الفرصة بالتوقف عن العمل لفترة من الوقت يغنون فيها اللون الذي يرغبونه ، يعودون بعدها إلى العمل فيقومون برفع السفينة لكي يتمكن فريق الطعوم من إدخالها مرة أخرى تحتها وهم « يكبرون » تكبيرة « طالبينه صاحب اليودة . . طالبينـه صاحب اليودة » ، ثم يمسكـون بحبـل الدام مرة أخرى ويبـدأون بالسحب من جديد والنهـام يغني لهم أحـد المـواويل أو الحدوات البحرية والسفينة تتهادى متجهة إلى البحر .

يستمـر العمـل على هذا المنوال حتى تصل السفينة إلى البحر تتخللها فترات توقف بسبب انحراف السفينة أو انقطاع حبل الدوام أو التصاق السفينة بالتربة . ويبذل البرارة جهداً عضلياً ضخماً يصل إلى قيامهم برفع السفينة عن الأرض كأنهم « رافعة » وهم يكبرون . ويسحبون الحبل وهم ينحبون وراء النهام في سحبة واحدة يسمع خلالها صرير السفينة الضخمة وهي تتحرك من مكـانها حتى تصل إلى مياه البحر عند ذلك تسحب من تحتها الطعوم التي ترفعها عن الأرض بعد أن تقوم المياه بتلك المهمة نيابة عنها .

وبعد أن توجه السفينة إلى النقعة أو الخورة خاصتها تنتهي مهمة البرارة ،

وتوكل عملية العناية بها إلى بحارة السفينة تحت إشراف النوخذا أو المجدمي .

وفي السفن الضخمة لا تستغرق عملية « البرار » أكثر من ثلاث ساعات إلا أنهم لا يستعجلون ذلك فهم يمارسون ذلك العمل بدون ملل أو كلل وبالعكس فإنهم يطيلون فترة العمل من أجل أن تطول فترة الغناء والاحتفال . لذلك فإنهم كلما قاموا بسحب السفينة مسافة قصيرة يتوقفون ويبدأون بالتصفيق والغناء أو يغيرون اللون الذي يؤدونه - وهي مهمة النهام أساساً - أما السفن الصغيرة الحجم فإن عملية إنزالها قد لا تزيد عن ساعة من الزمن خاصة عندما تقوم بتلك المهمة أحد المصابن أو الدور التي تحترف مثل تلك الأعمال والمهن .

فإذا انتهوا من إنزال سفينة اتجهوا إلى الأخرى وهم يؤدون الشيلات السيفية مثل البداية عندما جاءوا من « دارهم » أو « مجلسهم » . ويبدأون بمباشرة نفس العملية التي شرحناها سابقاً وبنفس طريقة الاحتفال . وبإمكان أعضاء المصبنة الواحدة إنزال ٣ أو ٤ سفن في اليوم الواحد . وسط حشود السكان حيث يكتظ الساحل بهم في تلك الأيام . فهناك من يقوم بذبح الذبائح وطبخ الطعام للعمال وآخرون يقومون بهب أو دهان أحد السفن وغيرهم يركبون الدقل وسط احتفال خاص أيضاً -كما سنرى فيما بعد- ومجموعات البرارة أمام كل فريج (حي) تقوم بإنزال السفن . . وهكذا يزدحم ساحل المدينة بالأنشطة المختلفة وبالجماهير التي تشارك في كثير من الأعمال . ولنا أن نتصور حجم الأنشطة التي تمارس في تلك الأيام التي تسبق بداية موسم الغوص .

بعد أن ينتهي « البرارة » من عملهم يعودون إلى دارهم وهم يغنون الشيلات السيفية مثلما أتوا . أما السفينة فإنها بعد أن تدخل إلى « النقعة » فإنها تصبح من اختصاص النواخذا ويزواه (بحارته) .

تترك السفينة في النقعة وتفتح لها عروتان (المغر) لكي تدخل المياه منها وبعد فترة قصيرة يصبح البحر زمن السقي (المد) فتمتلىء عن آخرها بالمياه وتترك هكذا لعدة أيام . والغرض من ذلك هو أن تتشبع ألواح السفينة الخشبية بالمياه فتتمدد وتضغط على بعضها وتلتحم بعد فترة الجفاف التي أصابتها لعدة أشهر وهو مركونة على الشاطىء كذلك فإن إغراقها بالمياه يساعد على خروج الحشرات منها . وتبقى السفينة مطبعّة في « الراجي » لمدة يومين أو ثلاثـة .

بعـد ذلـك تنحسر مياه البحـر في زمن الثبر (الجزر) فتبدأ نسبة المياه بالانخفاض التدريجي من السفينة حيث تصب من الفتحات مرة أخرى - في بعض السفن تكـون هنـاك ثلاث فتحات من كل جانب خاصة في السفن الضخمة مما يساعد على خروج المياه بسرعة - عند ذلك يقوم اثنان من البحارة بتفقـد السفينـة وهي في الراجي وعندما يتأكدان من توقف خروج المياه من السفينة يقومان بسد الفتحات (المغر أو لِتْوه) بقطعة من الجريد تسج بداخلها ثم تقطع على حافة الفتحة فتنتفخ بسبب المياه وتلتحم بخشب السفينة وتترك هكذا إلى الموسم القادم .

وتقوم مجموعة من البحارة بالتأكد من سلامة السفينة في الراجي في زيارة تفقـدية ثانية وتكون قبل أن تلتحم السفينة بالقاع وهي في الراجي بعد أن تنحسر المياه . وفي تلك الفترة وقبل أن تخف نسبة المياه كثيراً بداخل السفينة يبـدأون بتركيب « الفنـطاس »[٥٢]، أو خزان المياه المصنـوع من الخشب ، ويقومون بدفعه في وسط مياه البحر حتى يصل إلى السفينة ، بعد ذلك يتم رفعه فوق السفينة في الجهة التي يتحرك فيه سطحها ، إذ أن سطح السفينة عبـارة عن جزأين ، جزء ثابت والآخر متحرك (حيث يمكن خلع السطاح وتسمى جلاعيات السـطاح) ويوجد الجزء المتحرك في الجهة اليمنى منها ، فيقـومـون بخلع السـطاح وإدخـال الفنطاس في وسط السفينة ، بعد ذلك ينتظرون انخفاض نسبة المياه من السفينة في وقت الثبر (الجزر) حيث تخرج

المياه مع الفتحات ، بعد ذلك يجتمع عدد من البحارة تحت إشراف النوخذا أو المجدمي ويبدأون بتثبيت الفنطاس ، مجموعة منهم تنزف المياه من جوف السفينة والأخرى تقوم بالضغط على الفنطاس لكي يدخل أكثر فأكثر . ويتم نزف المياه بواسطة آنية مصنوعة خصيصاً لهذه المهمة ، تسمى (الزياري) وتستمر هذه العملية حتى يثبت الفنطاس في قاع السفينة في مكانه المعهود . ثم يستمر نزف المياه من السفينة إلى أن تفرغ تماماً .

بعد ذلك تأتي عملية « السكوبة » التي يرافقها احتفال كبير تستخدم فيه العدة (بأدواتها الموسيقية) والنهامين والمصابن . وذلك راجع إلى أن عملية شد الدقل (الصارية) من العمليات المهمة والتي تحتاج إلى أيدي عاملة كثيرة ، ومجهود كبير ، لذلك كانت الاستعانة بالمصابن مرة أخرى أمراً ضرورياً ، بالإضافة إلى الغناء والموسيقى اللذين لا غنى عنهما أثناء تأدية الأعمال الصعبة .

وتسمى عملية شد الدقل (السكوبة) فيقال : اليوم السكوبة أو بنسكب الدقل . الذي يتم والسفينة في (الراجي) . والدقل عبارة عن خشبة يرفع عليها الشراع (وهي صارية السفينة) وقد يكون في السفينة دقلان (أكثر من دقل) وكل دقل يرتفع عليه شراع (الدقل الأساسي يرفع عليه الشراع العود أي الكبير ، والدقل الأصغر يرفع عليه شراع الغيلمي) . ويبدأون عملهم بوضع طرف الدقل في « المشط » وهو المكان الذي يثبت فيه الدقل في « حيوض السفينة ، أو قاعها » ثم يقومون برفعه في وسط « الفلس » الذي هو عبارة عن خشبة تمسك بالدقل وتكون بين خشبة « العبد » وبين « المشط » . وخشبة « العبد » تتحرك من المشط حتى تضرب في الطور (قمة الدقل) . وتربط حبال الشراع في الدقل (من أسفل ومن أعلى) ومهمة هذه الخشبة منع الدقل من الاتجاه ناحية صدر السفينة . وإذا تسلق البحار الدقل ، ويقال « شم » فإنه ينزل مع تلك الحبال إلى المشط في قاع السفينة .

هذا ويجري الاحتفال بالسكوبة على ظهر السفينة أثناء رفع الدقل . وكان فن « السنقلي » هو أكثر الفنون المفضلة أثناء السكوبة . حيث كان النهام ينهم بمصاحبة إيقاع الطبول والطارات والطاسة مثله في ذلك مثل المخموس والدواري ومع ذلك فهو يختلف عن الفجري البحري كما أن إيقاعه يتميز بالبطء إلى حد ما .

ولقد أشارت أغلب الدراسات إليه باسم السنجني أو سنكين أو سنسكي . أما المصطلح الذي قمنا باستخدامه فهو « السنقلي » أو « السنكَلي » وذلك حسب ما سمعناه من أفواه الإخباريين الذين استقينا منهم معظم المعلومات الواردة في الدراسة وقد اتفق جميعهم على تسمية هذا الفن « بالسنكَلي » - في قطر على الأقل - .

يتميز السنقلي بجمال اللحن ومع ذلك فهو من فنون المناسبات البحرية مثل احتفال الوشر والسكوبة أي أنه لا يرافق أعمال معينة مثل باقي الفنون أو أغاني العمل البحرية وإنما هو مصاحب لبعض الاحتفالات ذات الصلة بموسم الغوص لذلك فهو يؤدى أما قبل بداية العمل أو في الفترات التي ليس بها عمل (أثناء فترات التوقف) فقط . أما عند السكوبة فإنه يستخدم كأحد فنون العمل ، ولذلك يمكن القول بأنه فن خاص بتلك المناسبة .

بعد الانتهاء من سكب دقل السفينة يقومون بتركيب خشبة « الفرمن » ويسمون تلك العملية « الكنخة ، أو يكنخون الفرمن) . ثم يركب الدستور وهو خشبة أخرى مهمتها التحكم باتجاه الأشرعة والفرمن والدستور من توابع أو أجزاء الشراع العديدة ذات المهام المختلفة . بعد ذلك يقومون بسحب السفينة قليلاً إلى الوراء وتشد بواسطة « الميدفات » حتى ترتفع قليلاً عن المياه في وقت المد لأنهم يريدون دهن السفينة وصبغها حتى لا تتسرب المياه إليها .

في البداية تسج الفتحات التي بين الألواح الخشبية بواسطة فتائل قطنية بعد أن تغطس في الزيت . فيقال : يكلفتونها . أو تكلفت بالفتائل . ثم يطلى جدار السفينة من الداخل والخارج بزيت « الصل » و « الودج » وهما أكثر أنواع الزيوت التي تستخدم في عمليات صيانة السفن .

أما عملية « الشونة » فهي عبارة عن طلاء الجزء السفلي من جدار السفينة الخارجي ويستخدم زيت خاص لهذه العملية مثل الودج ويطبخ على النار مع مواد أخرى وأهمها الجير وأحياناً يستخدم « القار » المطبوخ بدلا منها . ويسمون تلك العملية « قص الشونة أو يقصون الشونة » وتحصل منافسة بين أصحاب السفن حول من تكون قصة شونتة أفضل من حيث جودتها وجمال تخطيطها .

ولقد كان البحارة يمارسون ألواناً مختلفة من الغناء أثناء عمليات الهباب أو الشونة تلك وقد تكون نهمة أو هوسات وفي بعض الأحيان يكون الغناء عبارة عن شيلة جماعية . والشيلة عادة لا تزيد عن شطرة أو شطرتين يرددها البحارة أثناء ممارستهم للأعمال المختلفة المتعلقة بالبحر . ومن ضمن الشيلات التي يرددونها أثناء دهن السفن وقبل الانطلاق إلى مغاصات اللؤلؤ هذه الشيلة :

انشا لله نقضيها هالونه

انشا لله نقضيها هالونه

فهم يتمنون أن تنقضي تلك الرحلة الجديدة إلى الغوص بإذن الله . وذلك يشير إلى الاستعداد النفسي الذي يظهر لدى بحارة الغوص - قبل بداية الموسم - للرحلة الجديدة إلى مغاصات اللؤلؤ .

وبعد الانتهاء من طلاء السفينة وتنظيفها وإصلاحها تبدأ عملية تجهيز السفينة من الداخل للرحلة الطويلة التي ستقوم بها ، فيبدأ السيوب[٥٣] تحت

إشراف المجدمي بفرش الأخنان (جمع خن) والخداعات (جمع خداع) الموجودة في قاع السفينة ، حيث توضع في البداية قطع خشبية (شلامين) ثم يبسط فوقها جريد النخيل حتى لا تصل المياه إلى المواد التموينية والأدوات التي ستخزن في تلك الأخنان فتصبح مثل العريش داخل قاع السفينة .

بعد ذلك يجنون الحبال (أي يلفونها بطريقة دائرية) في وسط الخن الخاص بالحبال (الخرب) ويقال لتلك العملية « الجنان » والدين يقومون بها « جنانة » وتوضع الأشرعة في خداع في مؤخرة السفينة ، وهناك خداعات أخرى منها خداع خاص بالنوخذا ، وآخر للمواد التموينية ويسمى « الوانس » وهو أكبر الخداعات الموجودة في السفينة وتخزن به التمور وأكياس الأرز والدبس وخلافه ويقع تحت الفنة في المؤخرة ، وخن أو خداع آخر للحطب الذي يستخدم في إشعال النار ويقع ما بين الفنطاس وبطن السفينة ، كذلك يقوم السيوب بحمل المجاديف ووضعها في أماكنها . وبعد التأكد من اكتمال الاستعدادات للرحلة الجديدة ، يحدد النوخذا يوماً معيناً لليزوه لكي يحضروا إلى مجلسه ليتسلموا مبلغاً من المال يسمى « السلف » أي أنه سلفة مالية تساعد البحار على تموين أسرته قبل انطلاقه إلى موسم الغوص .

بعد أن يتأكد النوخذا من اكتمال استعدادات السفينة يحدد يوماً معيناً لتحميل المواد التموينية (الزاد) في السفينة . فيتجه إلى السوق بواسطة العبرة[٥٤] عبر اللسان المائي الذي يمتد آنذاك إلى داخل مدينة الدوحة حتى منطقة سوق واقف إلى دوار البنك العربي وفندق « باسم الله » - حالياً - مروراً بمبنى المحكمة وسوق فالح حيث كانت توجد معظم الدكاكين التجارية بالإضافة إلى سوق واقف الذي كان بمثابة سوق لمنتجات البادية من السمن والحطب واللبن المجفف . فيقوم النوخذا بشراء احتياجاته من عندهم ، حوالي عشر رزم كبيرة من الحطب ، والكمية التي يحتاجها من السمن . بعد ذلك

يتجـه إلى الـدكاكين المتوفرة آنذاك التي لا تزيد عن ١٥ دكاناً تتاجر بالمواد التمـوينية مثـل (الأرز والسكـر والشاي والقهوة) ومواد أخرى مثل الحبال والفتائل والمسامير . . وخلافه ، ويقوم النوخذا بالتزود من تلك المؤن فيشتري حوالي ١٣ كيساً من الأرز[٥٥] وحوالي ٤٠ قلة (كيس) تمر وحوالي ٧ صناديق من الدبس (سائل سكري مستخرج من التمور يطبخ معه الأرز لصنع أكلة البرنيوش التي يحبها البحارة كثيراً) . ونظراً لكون سوق واقف أقدم سوق في الدوحة فإننا سنورد نبذة عن عمليات البيع والشراء فيه والبضائع التي تتوفر به وأهميته بالنسبة لسكان البادية والمدينة على السواء ، فقد كانت تلك السوق تعتمد على منتجات محلية وأخرى مستوردة ، أما المحلية فتتمثل في (السمن ومواد الوقود خاصة الحطب والألبان واللحوم والأصواف وبيوت الشعر) وتوفرها البادية القريبة ويتاجر بها منتجيها الأساسيين من البدو فيقومون ببيعها مباشرة إلى المشترين . وتزدهر أعمالهم وتجارتهم مع بداية موسم الغوص .

أما النوع الثاني من التجارة (التموينية بالذات) غير المحلية أو المستوردة فإنها تعتمد أساساً على زيارة سفن التجارة القادمة من البصرة ودبي ومن لنجه بفارس . وكانت السفن الكويتية من نوع (البوم)، تقوم قبل بداية الموسم بجلب الآلاف من أكياس التمور التي يتم استهلاكها في موسم الغوص ، وتعتبر المادة الغذائية الأساسية على ظهر سفينة الغوص وفي المجتمع ككل. وكان كيس التمر (القلة) يزن ٣٦ كيلو . وهناك تمور تجلب من مناطق أخرى مثل مدينة (ميناو) من إيران ومن (الباطنة) في سلطنة عمان ولكنها كميات قليلة بالنسبة للكميات التي تجلب من (البصرة) ولنا أن نتصور كميات التمور المستهلكة خاصة وأن السفن الخماسة تعود للتزود بالمؤن كل ١٥ أو ٢٠يوماً ، فــي حــين أن السفن الضخمة تتزود بالمؤن وهي راسية في الهيرات حيث يقوم

« الطواش » وهو الممول الأساسي للرحلة بإرسال العبرة محملة بالمؤن وهي عبارة عن ٤٠ أو ٥٠ قلة تمر وعدة أكياس من الأرز وكمية من الطحين والسكر بالإضافة إلى المياه التي تحملها العبرة أيضاً . ويستغل تجار التموين أيضاً فترة الازدهار تلك فيرسلون العبرات إلى سفن الغوص لبيع المؤن والمياه ، إلى أصحابها .

وكانت تجارة المواد التموينية أهم تجارة يمارسها التجار آنذاك بعد تجارة اللؤلؤ (الأولى يسيطر عليها العجم وأهل فارس والأخيرة يسيطر عليها المواطنون من أبناء القبائل ، في الغالب) ولقد ازدهرت تجارة التمور بفضل اقتصاديات اللؤلؤ التي تعتمد على استخدام عدد كبير من الأيدي العاملة . خاصة وأن تلك المواد التموينية المستخدمة من النوع الذي لا يفسد نتيجة التخزين لفترات طويلة .

ولقد وفر اللسان المائي - الذي سبق لنا ذكره - حركة أكبر للتجارة التموينية ، حيث كان بإمكان السفن الصغيرة أن تتوغل داخل تلك المياه خاصة في زمن المد وبعضهم يستخدم العبرات والقوارب الصغيرة ، في حين تكون السفن الكبيرة راسية تجاه ساحل الدوحة من رأس أبو عبود حتى البدع ورميلة . وكان الرجال يتنقلون بواسطة القوارب أو سباحة ، هذا بالإضافة إلى جسر صغير يسمى « الدوسة » يصل ما بين الضفتين المتقابلتين . ويتجول النواخذة بقواربهم بين الدكاكين حتى إذا تزودوا بالمؤن التي يرغبون بها اتجهوا إلى سفنهم وقام البحارة بتخزينها في « الوانس » .

بعد ذلك تبقى عملية « المزر[٥٦] » أي ملء الفنطاس بالمياه العذبة . فيتفق النوخذا مع « المزارة أو المزازير » وهم فئة من السكان امتهنت عملية جلب المياه من العيوب إلى السفن محملة في قرب جلدية ضخمة على ظهور الجمال والحمير . وتفضل الجمال عند تزويد السفن بالمياه لسببين ، أولاً لطول قامتها بحيث تتمكن من خوض مياه البحر والوصول إلى السفينة ، وثانياً

لقـدرتها على حمل كميات أكبر من المياه من باقي « الزمايل[٥٧] » أي وسائل التحميل أو النقل المتوفرة آنذاك . وتشير الدراسات التاريخية عن المنطقة وأهمها الدراسة الإحصائية التي أجراها لوريمر في عام ١٩٠٦ إلى توفر نسبة كبيرة من الجمال والخيول في قطر فاقت باقي إمارات الخليج . حيث بلغ عدد الجمال حوالي (١٤٣٠) وفي الـدوحـة وحـدها حوالي (٨٠٠) جمل كما كان يملك السكان حوالي ٢٥٠ رأساً من الخيول وأعداداً كبيرة من الحمير والبغال والتي كانت تستخـدم كوسائل للتنقل وحمل البضائع وسحب المياه من العيون أما بالنسبة للجمال والخيول فإنها بالإضافة إلى كونها وسيلة للتنقل كانت تستخدم لأغراض أخرى منها : المشاركة في الغزوات والدفاع عن البلاد ضد القبائل الأخرى الغازية .

وحين يصل « المزارة » يقوم البحارة برفع القرب وصبها في الفنطاس حتى يمتـلىء . وعـادة فإن حجم الفنـطاس لا يكون كبيراً حتى لا تتأثر السفينة بالوزن الزائد مما يعرضها لخطر الغرق . لذلك فإن تلك الكمية لا تكفي رغم أن نصيب العامل أو البحار كوب من الماء (قبعة) طوال اليوم ، لذلك فإن السفن الصغيرة تعود للتزود بالماء في حين تقوم العبرات المحملة بالمياه بزيارة السفن الضخمة في المغاصات وتزودها بكميات المياه التي تحتاجها .

وفي تلك الأثناء يكون النوخذا قد قام باختيار البحارة الذين سيرافقونه في رحلة الغوص . ويتراوح عددهم ما بين ٢٥ غواصاً و٢٨ سيباً وحوالي ٦ تبابه (فتيان يتدربون على العمل) وعدد من الرضفاء بالإضافة إلى مجدمي (رئيس عمال) وسكوني يدير دفة السفينة وبلاد وراعي السريدان (الطباخ) . ويبلغ متوسط عدد العمال في السفن السلفية الكبيرة حوالي ٦٠ بحاراً .

ويواجه نواخذة سفن الغوص بعض الصعوبات في هذا المجال ، ففي الوقت الذي يتوفر لدى بعض النواخذة بحارتهم الخاصين الذين لا يعملون

إلا معهم ، فإن البعض الآخـر كان يعـاني من نقص في الأيدي العاملة ، نتيجة أزدهار تجارة اللؤلؤ التي ترتب عليها زيادة في رحلات الغوص ، الأمر الـذي اضـطر النواخذة إلى الاستعانة بعمالة غير محلية كانت تفد في أغلب الأحوال من الأقاليم المجاورة (من قلب الصحراء ومن الأحساء[٥٨] والساحل الفارسي) . ومن مظاهر تلك الفترة التي تسبق يوم الدشة الحركة الغير عادية بين المدن القطرية الساحلية حيث كانت مجموعات كبيرة من البحارة تتنقل ما بينها للالتحاق بالسفن التي اتفق معهم نواخذتها للعمل فيها . إذ لم يكن من الضروري أن يعمـل البحـار في نفس سفن المـدينـة التي يعيش بها ، هذا بالإضـافة إلى العمال الوافدين من الأقاليم المجاورة والذين لا يجدون مكاناً يقيمون فيه في الأيام التي تسبق « يوم الدشة » فيستلقون على الحزوم[٥٩] في الليل ويتنقلون في النهار ما بين الساحل والسفن الراسية على الشاطىء والتي سيعملون بها .

ويقوم النواخذة بانتقاء البحارة وتكون هناك منافسة شديدة بينهم من أجل الفـوز بالتعـاقـد مع الغـواصـين المهرة ، فيقومون بإغرائهم بالأموال وبالمواد التموينية مع ذلك وتحت ظروف معينة (اقتصادية) ونقص العمالة الماهرة ، بسبب زيادة رحلات الغوص قد يلجأ النوخذة إلى الاستعانة بيزوى (بحارة) لا يعلم عن كفاءتهم شيئاً ويفاجأ أثناء الرحلة بافتقادهم للخبرة وتدني كفاءتهم الجسدية فيأتي المحصول قليلاً ، لذلك يلجأ النوخذة في بعض الأحيان إلى التهديد واستخدام الشدة والقسوة في العمل لكي يضمن النجاة من الخسارة .

ويرضخ البحارة لشروط النواخذة نتيجة كون الغوص العمل الوحيد المتاح لكسب الـرزق . فمعظم الرجال في المجتمع ينضمون إلى رحلات الغوص كعمال أو بحارة على السفن . فالذي لا يستطيع الغوص في الأعماق يتحول إلى مهنة أخرى كأن يكون سيباً وإذا لم تتوفر لديه المقدرة على « السوابة » يعمل

في فلق المحار ، فلا بد أن يعمل في البحر ، إذ لا يوجد عمل آخر خاصة لأبناء القبائل الذين يتأففون من أعمال أخرى مثل العمل في تجارة التموين أو القلافة أو صيد الأسماك بسبب بعض القيم التي يؤمن بها المجتمع وتتمثل في احتقار مثل تلك الأعمال التي تفتقد إلى الجرأة والفروسية المترسخة في أعماق أبناء القبائل البدوية المستقرة حديثاً . هذا بالإضافة إلى صغر حجم أو مجال تلك المهن حيث يكفي عدة أشخاص من الحرفيين لتوفير احتياجات المجتمع من تلك الحرفة .

لذلك كان الشباب وصغار السن يتنافسون لإثبات كفاءتهم تجاه النواخذة . فالأطفال ينخرطون في أعمال البحر كتبابه وبعضهم يعمل بعد أن يختم القرآن عند المطوع . لذلك كانت الأمهات يعانين من القلق على أطفالهن المشاركين في رحلات الغوص ، فظهرت بعض الأشعار المرتبطة بهذا المعنى . فمثلاً « هذه الأم تحذر ابنها من الغوص فتقول له هذه الأبيات الشعرية[٦٠] »

ياطويل الظهر وين أنت رايح تحسب الغوص لعبٍ بالبرايح

وبعد أن يحدد النوخذة بحارته يطلب منهم الحضور إلى مجلسه في موعد معين من أجل توزيع مبلغ « السلف » عليهم . وفي فترة لاحقة في آخر أيام الغوص ، تولت الحكومة الممثلة في « شيخ البلاد » وضع إعلان يحدد فيه نصيب كل بحار حسب مهنته ويعلق في السوق . وكان نصيب الغواص ٥٠٠ روبية والسيب ٢٠٠ روبية . ونظراً للدور الإعلامي والثقافي الذي يلعبه الشعر في حياة الناس آنذاك فإن هذا الإعلان لم يسلم من الشعراء الذين كانوا يرافقون بشعرهم معظم الأحداث التي تجري في المجتمع ، فهذه الأبيات تصف ذلك الإعلان[٦١] .

يسقي[٦٢] لين يجيك حطو إعلاني
الغيص خمسميه مع أربع يواني[٦٣]
ومن التمر يابو زياري[٦٤] يزلونه[٦٥]

إن الشاعر هنا يتمنى اللحظة التي يعلق فيها الإعلان (المذكور) ويحدد فيه نصيب الغواص ٥٠٠ روبية مع ٤ أكياس من الأرز بالإضافة إلى تمور تنضح بسائل الدبس الحلو المذاق .

بعـد أن يوزع النوخذا المبالغ ، المالية على البحارة والمواد التموينية في بعض الأحيان فإنه يخبرهم بالموعد أو باليوم الذي ستكون فيه (الدشة) أي الركوب إلى السفينة والانطلاق إلى مغاصات اللؤلؤ .

عنـد ذلـك ينـطلق البحارة لاستكمال استعداداتهم للرحلة بواسطة مبلغ السلف[٦٦] الذي أعطاهم إياه النوخذة ، الذي سيوفر لهم (أي ذلك المبلغ) تموين أسرهم وشراء مستلزمـات عملهم أثنـاء الـرحلة على ظهـر السفينة . فيذهب البحار إلى السوق ويقوم بشراء مؤونة لأسرته طوال الفترة التي سيغيب فيهـا عنهم . مثل (الأرز والتمور والقمح والسكر والشاي والقهوة) كذلك يقوم بالاتفاق مع أحد الأشخاص لكي يقوم بجلب المياه للأسرة من العيون ويترك عند المرأة مبلغاً من المال تستعين به إذا احتاجت لأي شيء . بعد ذلك يشتري مستلزمات رحلته من حبال ومفلكة وخبط ، وإذا كان غواصاً فإنه يزيد على ذلك الفطام والديين . هذا وتشارك المرأة سواء كانت زوجة أو أم في إعداد ملابس البحـار (زوجهـا أو ابنها . .) فتقوم بخياطة « الشمشول » اللباس الخـاص بالغـواص (يلبسـه اتقاءً من الحروق التي يسببها الدول أو قنديل البحر) وتدمج (تبرم) الحبال خاصته التي سوف يستخدمها في عمله سواء كان غواصـاً أو سيبـاً . وتجهـز فراشـه الذي قد يكون حصيراً أو بساطاً أو شبنـاكـاً . وتضع له ملابس في صندوقه الخشبي (السحارة) كذلك بعض القهـوة والسمن إذا كان لا يحب ما يقدمه النوخذا لهم في رحلة الغوص . وبعضهم يأخذ معه نوع من الحلوى تسمى (كليليا) .

كذلك تقوم المرأة بإعداد « اليفت » وهو سائل غليظ يستخدمه الغواص بعد أن يخرج من مياه البحر قبل أن ينام كعلاج للتقرحات الجلدية التي تصيبه

نتيجـة التعـرض لأشعـة الشمس والمياه المـالحـة بصورة مستمرة . ويشتري الغواص مكونات اليفت وهي (القرط والهليليا والقروف) من السوق وتقوم المرأة بطحنه بواسطة الرحى حتى يصبح ناعماً وتخلطه مع السمن وتتركه لفترة ثم تضعه في (قبعة) وهي قشرة ثمرة النارجيل . وتعد له بالإضافة إلى ذلك مجمـوعـة الأعشاب التي يطلق عليها اسم « الحلول أو العشرج » وتستخدم كعلاج أساسي في المجتمع لشتى الأمراض التي يتعرضون لها .

هذا ومتى انتهت استعدادات السفينة والعمال فإن النوخذا يقرر الانطلاق إلى المغاصات . ويطلق على ذلك « الدشة » فيقولون : « بيدشون الغوص » . وموسم الغوص العود - كما سبق وأن أشرنا - ينقسم إلى قسمين : أول السنة وهي (الفـترة الأولى) من موسم الغـوص العـود . والقيظ وهي (الفـترة الثانية) . وبذلك يبدأ موسم جني اللؤلؤ من أعماق البحر .

١ - الهيرات الضحلة أو قليلة العمق يتراوح عمقها ما بين ٤ إلى ٧ أبواع ، أما الهيرات المتوسطة فهي التي يتراوح عمقها من ١٠ إلى ١٦ باعاً ، أما الهيرات العميقة فهي أكثر من ذلك . وعموماً فإن الهير هو أساساً منطقة مياه ضحلة . والباع هو المقياس الذي يتم بواسطته تحديد عمق الهير أو المغاص ويساوي ٦ أقدام . وفي المعجم الوجيز الباع : مسافة ما بين الكفَّين ، إذا انبسطت الذِّراعان يميناً وشمالاً .

٢ - لمزيد من المعلومات حول هذه النقطة يمكن الرجوع إلى دراسة حول هذا المـوضـوع قمنـا بإجرائها انظر : كلثم الغانم ، المجتمع القطري من الغـوص إلى التحضر ، مؤسسـة النـور للدعـاية والاعـلان والنشر ، الدوحة - قطر ، ١٩٨٩ ، ص ٣١ - ١٠٦ .

٣ - توجد إحصائية بتوزيع سفن الغوص على مدن قطر وكذلك عدد العمال في كل مدينـة أجـراهـا لوريمر في عام ١٩٠٦ : ج . ج . لوريمر ، القسم التاريخي ، ج ٦ .

٤ - وشار : وهي كلمة تطلق على السفينة المصنوعة حديثاً . وعلى السفينة التي تم إصلاحها وتجديدها . وفي اللغة : ذكر في القاموس المحيط أن

وشر الخشبة بالميشار ، والوشر غير مهموز ، أشرها بالمنشار ، إذا نشرها ص ٦٣٣ . وشيء مشور : مزين ، ص ٥٤٠ ، والشورة والشارة والشور والشيار والشوار : الحسن والجمال والهيئة واللباس والسمن والزينة ص ٥٣٩ . وشرها : ركبها عند العرض على مشتريها .

٥ - الزين : السفينة

٦ - حصتٍ : الحصة أو الحص نوع من اللؤلؤ الثمين .

٧ - توشرها : تشتري أو تدشن وتحتفل بغيرها .

٨ - حول : نزل .

٩ - تبة : كل غطسة يغطسها الغواص تسمى تبة .

١٠ - تسميحة : بسهولة .

١١ - يصنف اللؤلؤ حسب الحجم إلى أربعة أحجام أكبرها الرأس ثم البطن ، الذيل ، وأخيراً السحتيت . ويصنف تصنيف آخر من حيث الجودة فتأتي الدانة في المقدمة وهي نوعان « الطبلي والعدسي » وبعدها الجيون ، ثم اليكة ، القولوه ، البدلة ، وأخيراً اللؤلؤ الناعم أو السحتيت . ويصنف اللؤلؤ أيضاً تصنيف آخر هو القماش والحصابي والقماش أقل قيمة من الحصابي (جمع حصباة) لذلك فإن مردود بيع القماش لا يوفر أرباحاً للسفينة وبالكاد يسد مصاريف الرحلة . في حين أن الحصباة الممتازة تجلب الربح الوفير حيث تباع أحياناً بمبالغ كبيرة تصل إلى ١٥ ألف و ٢٠ ألف روبية .

١٢ - العدة : كان يطلق على مجموعة قارعي الطبول والدفوف (آلات الإيقاع) العدة . ولا تزال التسمية دارجة حتى الآن .

١٣ - تشبه الفتاة في الثقافة المحلية بالدانة التي هي أفضل وأكبر أنواع اللؤلؤ المحلي ، وهذا ناجم عن تأثر الثقافة بالبيئة البحرية .

١٤ - مؤلف هذه الأبيات هو الشاعر ماجد بن صالح الخليفي المتوفي عام ١٣٢٥هـ .

١٥ - نديبي : صديقي .

١٦ - دن : قرب . وادون دونك : أي اقترب مني - القاموس المحيط ص ١٥٤٥ .

١٧ - ماشور : مصنوع حديثاً .

١٨ - ساج : من خشب الساج .

١٩ - اللجة : البحر .

٢٠ - خاطف : نشر الأشرعة يسمى الخطف .

٢١ - العود : الشراع الكبير .

٢٢ - واج : الوج هي السرعة والوج : النعامة السريعة - القاموس المحيط - ص ٢٦٦ .

٢٣ - هذه الأبيات من تأليف الشاعر الشعبي سعيد بن سالم البديد المناعي . قالها في « الجابرية » سفينة الطواش شاهين العسيري .

٢٤ - لفان : اسم أحد مغاصات اللؤلؤ .

٢٥ - عيل : عجل .

٢٦ - مواريه : أفعاله ومشاهدة .

٢٧ - بندر الحاله : مرسى طبيعي تحيط به مغاصات اللؤلؤ .

٢٨ - وَلَـمْ : إذا كان اتجاه الرياح مواتياً للإقلاع بالأشرعة يسمى « ولم » وهي لغة : يحرك . والوليمة تمام الشيء واجتماعة. القاموس المحيط ص ١٥٠٧ .

٢٩ - السيلي : الرياح الجنوبية تسمى السيلي . وهي رياح خفيفة تناسب الإقلاع بالأشرعة .

٣٠ - برزان : سفينة كانت ملك سلطان المسلماني .

٣١ - ينحات : أجنحة .

٣٢ - القلاليف : جمع قلاف . وهي فئة تقوم بصناعة وإصلاح السفن وتوابعها من مجاديف وصواري وخلافه .

٣٣ - اليرار : كانوا يطلقون على عملية سحب السفينة من الشاطىء إلى البحر تسمية « اليرار » .

٣٤ - الطعوم : هي عبارة عن قطع خشبية مستطيلة تدهن وتوضع تحت السفينة أثناء سحبها .

٣٥ - الرقوه : لغة هي فويق الدعص من الرمل ورقيا ورُقيا : صعد كارتقي وترقي . القاموس المحيط ص ١٦٦٤ .

٣٦ - محمل : كانوا يطلقون على السفينة اسم المحمل .

٣٧ - الأزقرت : هو الرجل الذي يتمتع بالقوة والفتوة ويتميز بشجاعته وحبه للعمل والأناقة في نفس الوقت ويمارس الغناء والطرب .

٣٨ - كانت أجرة سحب السفينة حوالي ٢٠ روبية توزع على أهل الدار . إلا أن ذلك نادراً ما كان يحدث إذ أن أغلب المشاركة تكون تعاونية . وكان على مالك السفينة تقديم الغذاء للمشاركين فقط وقد يزود النوخذا الدار بالشاي والقهوة .

٣٩ - كانت السفن تجثم أمام البيوت المطلة على البحر حتى أن مياه البحر تصل إلى جدران البيوت وقت المد الشديد وهبوب العواصف لذلك فإن السكان يسمعون كل شيء يدور على الشاطىء بسبب قربهم الشديد منه . فعندما ينادي المجدمي قائلاً : فزعة ! فزعة ! أي افزعوا أو هلموا لمعاونتنا في سحب السفينة يهرع أو يفزع الجميع إليه .

٤٠ - الثوب الدمي : هو أساساً قماش قطني أبيض يسمى (الأمريكاني) ويصبغ باليفت حتى يصبح لونه بني أو أحمر قاتم .

٤١ - بعد انتهاء عصر الغوص اقتبست الفرق الغنائية النسائية الشيلات السيفية لتؤديها في حفلات الزفاف أثناء الدخول إلى المنزل الذي تجري فيه حفلة الزفاف وأثناء زف العروسين وجلب الدزه إلى منزل العروس . والاحتفال بجلب ذره اختفى الآن ولكنه مازال موجوداً في مجتمع دولة الإمارات المتحدة .

٤٢ - المشية : هي أسلوب يطبق أثناء رقصة العرضة حيث يتحرك الصفان المتقابلان واحد إلى الأمام باستمرار والآخر يتراجع إلى الخلف مسافة قد تطول في بعض الأحيان إلى حوالي ٣٠٠ مترٍ ثم تتغير الأدوار فيقوم الصف المتقدم بالتراجع والآخر يتقدم . . وهكذا . وهم يغنون أغاني العرضة حيث يقوم أحد الصفين بالرد على الآخر حتي تنتهي « الشيلة » . والمشية حركة مقتبسة من حركة الجيوش المتقابلة في الكر والفر أو بما يشبه الاستعراض العسكري لمعركة توشك على الوقوع . وقد يرجع ذلك إلى كون العرضة هي رقصة حرب أساسا ، وهذا الأسلوب في « المشية » قد اندثر ولم يعد يطبق منذ فترة طويلة . وبقي منها المشية التي يؤديها الرجال أثناء زف المعرس مع أداء العرضة بدون مشاركة أية أدوات إيقاعية في حفلات الزفاف المحلية (في قطر) وهي مشية إلى الأمام فقط حتى يتم إدخال المعرس المحتفىٰ به إلى منزل أهل العروس وهم يشيلون أحد الشيلات المعروفة .

٤٣ - كذلك يوجد شيال للشيلة وهو الشاعر أثناء أداء العرضة ولكنه لا يعتبر مغنياً .

٤٤ - أداء فرقة مبارك بن سعيد السليطي . من تسجيلات مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية .

٤٥ - غميج : عميق .

٤٦ - أداء النهام : مبارك بن سعيد السليطي . من تسجيلات الدراسة الميدانية . أداء منفرد ، تسجيل آخر لنفس الأغنية بمصاحبة عدة كاملة لفرقة مبارك بن سعيد ، من تسجيلات مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية .

٤٧ - ذكر في القاموس المحيط في ص ١٤٦٢ أن أطعم النخل : أدرك ثمرها . والغصن وصل به غصنا من غير شجره . والحمام إذا أدخل فمه في فم أنثاه فقد تطاعما . وكان السكان يطلقون على السفينة التي

وضعت تحتها الطعوم كلمة « مطاعمة أو محمل مطاعم أو طاعموه » .

٤٨ - البيص : يسمى هيكل السفينة بالبيص . ويربط حبل الدام من الساطورة حتى الجلاك ملتفا حول البيص من تفر السفينة إلى صدرها .

٤٩ - كان لكل طعم شخصان يتولان سحبه من تحته السفينة ووضعه مرة أخرى أمامها . وفي المتوسط تستخدم ثلاث قطع من الطعوم أثناء سحب السفينة . ويشارك هذا الفريق بالغناء والتصفيق مع باقي البرارة .

٥٠ - يسمى الغناء على الطفل من أجل مساعدته على النوم التهّوي ويقال : يهّوون عليه أو تهّوي أمه عليه . وتستخدم كلمات مثل (هلولو . . هلولو) وهي تشبه كلمة هولو . . هولو التي يستخدمها النهام أثناء أداء النهمة .

٥١ - تؤدي العدة الإيقاع المطلوب على طبل أو طبلين (يسمى الطبل الدمام) ودفوف وطاسة .

٥٢ - يقوم القلاليف بصنع « الفناطيس » للسفن من الخشب . بعد ذلك يقوم البحارة بطبخ الصل ، وفي فترة لاحقه القار ، ويدهنون به جدار الفنطاس الخارجي بعد أن يسج بالفتائل القطنية حتى لا تتسرب المياه منه .

٥٣ - توكل إلى حوالي ٢٥ بحاراً من الطاقم (من فئة السيوب) مهمة تجهيز السفينة من الحبال والمجاديف . . إلخ .

٥٤ - العبرة : سفينة نقل صغيرة .

٥٥ - في فترة من الفترات كان هناك نقص في الأرز فاعتمد النواخذة على القمح في إطعام البحارة وبما أنه يستورده غير مسحوق أو مطحون فإن المهمة توكل إلى زوجة النوخذا التي تقوم بدعوة جاراتها للمشاركة في دق تلك الكميات الكبيرة من القمح في الفترة التي تسبق يوم الركبة . وكن

أحيانا يقمن بالدق وهن يغنين في احتفال يشبه الاحتفال الذي كان يجري أثناء دق وطحن الحبوب السنوية التي تتم في شهر شعبان ضمن استعدادات السكان لشهر الصيام .

٥٦ - المزر في « القاموس المحيط » هو الحسو للذوق ، ومزر القربة : لم يدع فيها أمتا . والتمرز : الشرب القليل . انظر ص ٦١١ .

٥٧ - الزمايل : جمع زمالة . والزاملة هي التي يحمل عليها من الإبل وغيرها ، انظر القاموس المحيط ، ص ١٣٠٦ .

٥٨ - كان العدد الأكبر من العمال الوافدين من إقليم الإحساء المجاور للحدود الغربية لشبه جزيرة قطر وبما أنه إقليم زراعي أساساً فإن البحارة كانوا يجلبون معهم التمور وعذوق النخيل لبيعها على السكان في تلك الفترة .

٥٩ - الحزوم : مفردها حزم ، وهي الأرض المرتفعة . وفي اللغة حزن ولكن قلبت النون إلى ميم .

٦٠ - حصة الرفاعي ، أغاني البحر ، دراسة فولكلورية ، ذات السلاسل ، ١٩٨٥ ، الكويت ، ص ٣٢١ .

٦١ - الأبيات من شعر الشاعر القطري الشعبي « بوشرود » .

٦٢ - يسقى : متى .

٦٣ - يواني : أكياس « الأرز » .

٦٤ - زياري : آنية كانت تستخدم في نزف المياه من السفينة .

٦٥ - يزلونه : يصبونه .

٦٦ - السلف : هو أحد أهم المبالغ التي يقرضها النوخذا للبحار ، لأنها أولاً تعتبر أكبرها ، وثانياً لكونها تساعد البحار على تموين أسرته في الفترة التي سيغيب فيها . ولا يحصل البحار - قبل الغوص - إلا على هذا المبلغ المسمى (السلف) وذلك كان في معظم مناطق الخليج . ولكن

في ساحل الإمارات نجد أن هناك مبلغاً آخر يطلق عليه اسم « العوق » يقترضه البحار من النوخذا قبل الرحيل لإرضاء زوجته الغاضبة والنوخذا مخير في ذلك فقد يرفض فيسافر البحار محزونا لأنه لم يستطع إرضاء زوجته .

الفصل الثاني

احتفالات دشة الغوص

تعد أول السّنة بداية الموسم الحقيقية . فيقال : سن فلان وسنو : أي دشو (بدأوا) الغوص . هذا ولا يوجد يوم معين (للركبة) وإنما يتحدد ذلك بظروف كل سفينة وحسب ظروف اتجاه الرياح . مع ذلك فقد كانت هناك أيام معينة يفضلون الركوب فيها وهي الخميس والإثنين من كل أسبوع . وكانوا يتفاءلون بالدشة في يوم الإثنين بالذات ويتباركون به حيث يقولون : الإثنين - ﷺ - على سيد الكونين . ويكرهون السفر في يوم الثلاثاء ويقولون : الثلاثة كلافة . كذلك يوم الأربعاء ويعتقدون أن السفر فيه قد يصيب الإنسان بكارثة كالموت مثلاً[1] . وظهر تأثير السفر في يوم الإثنين في الشعر مثل :

شدوا الضعاين يافهد من يوم الإثنين
شلو بخلي ورحلو ياحر فرقاه

أو

نهار ما جا اللوبي[2]
دمعي جري ياعين
بالسبت استعجلوني
ماريضو الإثنين

في اليوم المحدد للرحيل يقوم المجدمي برفع العلم على صارية السفينة منذ الصباح الباكر كإشارة متفق عليها لاستدعاء البحارة فيتوافد البحارة إلى سفينتهم ، ويكون (راعي السريدان) هو أول الواصلين إليها وفي هذا اليوم توكل إليه مهمة طبخ الذبائح (واحدة أو أكثر حسب كرم النوخذا وحجم سفينته) احتفالا بيوم « الدشة » . ويتقدم البحارة إلى السفينة وهم يلبسون « الوزار والزنجفره » وهما القطعتان الأساسيتان اللتان يلبسهما البحارة أثناء عملهم على ظهر السفينة وقد حمل كل واحد منهم حباله (إلا يدا أو الزيبل) على كتفه ، وعلى كتفه الآخر صندوقه الخشبي وفراشه . ويصعدون إلى

السفينة وقد خيم الحزن عليهم بعد أن قاموا بتوديع أسرهم وزوجاتهم وأطفالهم الـذين يرافقـونهم حتى شاطىء البحـر ، وتـدعو الأمهات والزوجات (الله يرزقكم ، الله يفتح عليكم ، الله كريم ، الله يعقلكم (أي يردكم) سالمين غانمين . . إلخ) . وتبقى النساء في البيوت يراقبن السفن من وراء جدران المنازل المطلة على البحر وبعضهن يرافقن الأهل إلى الشاطىء وهن يدعون لهم (أمنت الله يالغواريص . . . .) .

عندما يتكامل بحارة السفينة يحضر النوخذا حاملاً صندوقه (المشتخه) على كتفه ويصعد إلى السفينة . ثم يتلفت حواليه وينادي على « المجدمي » ويسأله قائلاً : هاه متكاملين . فيرد عليه المجدمي : متكاملين . عندئذ يأمره النوخذا قائلاً : احسب جم غيص وجم سيب . فيبدأ المجدمي بحساب عدد البحارة ويتنقل أثناء ذلك على صدر السفينة وتفرها (مقدمتها ومؤخرتها) ثم يخبر النوخذا قائلاً : متكاملين كذا غيص وكذا سيب . فيرد النوخذا : صلوا على النبي توكلنا على الله ويهكم العافية (أي تفاءلوا خيراً) .

عند ذلك يأمرهم بسحب (الباوره) المرساه قائلاً : يالله فوق أبرخ . ومنذ تلك اللحظة يبدأ النهام بممارسة دوره الغنائي المصاحب لعملية إقلاع السفينـة من الميناء . فينهم « يالله بدينه » التي تستغرق عملية سحب حبل الخراب المربوط بالمرساة والتي تسمى (البريخة) .

يبـدأ البحـارة عملهم وهم يغنـون شيلة خفيفة لكي ينظموا صفوفهم فينشدون (هوليا . . هوليا . . هوليا) ثم يبدأ النهام بالغناء بصوت منخفض وبدون مصاحبة أية أدوات موسيقية .

ياسـيد المـرسـلينـا
اشـفـع لنـا يامحمـد
اشفـع لنـا بالشدائـد

بعدها يبدأون بسحب حبل الخراب على طريقة البريخة الدواري فيقوم النهام بأداء نهمة « يالله بدينه[٤] »

هولــو يالله بدينـه
هولــو بالــســلامــة
هولــو بلغ منــايـه
هولــو يـا مسـافـر
هولــو يالله بالــســلامــة

وأثناء غناء النهام يردد البحارة وراءه نحبة معينة (هيه . . هيه) . وفي منتصف الأغنية تبدأ العدة بقرع أدوات الإيقاع (الطبل والمرواس والطاسة) فيتحول لحن الأغنية وأداء النهام نفسه ليصبح أكثر سرعة .

ويظهـر الاتكال على الله في الأغنية السابقة عند البحارة المسافرين إلى مغاصات اللؤلؤ ، والتضرع إليه أن يبلغهم آمالهم ويردهم سالمين إلى ديارهم . ثم تليها بعض كلمات الغزل التي تختم بها دائماً نهمة « يالله بدينه » .

بعد الانتهاء من نهمة « يالله بدينه » يقوم البحارة بتكرار أحد الهوسات التي لا تزيد عادة عن شطرتين يكررها البحارة لفترة من الزمن ثم يغيرونها إلى هوسة أخرى . . وهكذا .

بعد أن ترفع المرساة ويتم تثبتها في مكانها على ظهر السفينة يأمر النوخذا باستخـدام « المجـاديف » حتى تصل السفينة إلى المياه العميقة لكي يسهل عليهم الخــطف بالشراع[٥] . فيأمــر البحـارة قائـلاً : ميداف . فيبـدأون بالتجـديف بمصاحبة غناء النهام الذي يكون هذه المرة من لون « اليامال » الذي هو عبارة عن مواويل بحرية يؤديها النهام بصوت حزين وشجي وبدون مصاحبة أيَّة أدوات إيقاعية .

وكـانت المـواويل الزهيرية هي أحد أهم أنواع المواويل التي تؤدى أثناء التجديف . ويبدأ غناء النهام بتكرار كلمة « هو يامال . . هو يامال) والبحارة يرددون وراءه نحبة عبارة عن كلمة واحدة هي (هيه) أثناء دفعهم للمجاديف بصـورة منـظمـة وبتنـاسق شديد . في الوقت الذي يستمر فيه النهام بغناء الموال . ومن أمثلة تلك المواويل التي تؤدى أثناء (ير المياديف) . أي دفع أو سحب المجاديف في يوم الدشة هذا الموال :

وطـــر[٦] مضـــى باصـــيه لو يرجـــع ياعـــلي
وكـــثـــر للعـــى[٧] فضـــيحـــه والمـــبتـــلي يلعـي

وهذا الموال للشاعر يوسف المالكي :

يادانـــة الـــبـــوم[٨] يالـــلي بالـــثـــمـــن غالـــيه
وراعـــي الهـــوى يشـــتري مجبـــور لو غالـــيه

وفي بعض الأحيان يقـوم « يراره » المجاديف (وهم البحارة) بالاكتفاء بغناء هوسات أو شيلات خفيفة ، خاصة في السفن التي لا يوجد بها نهام ، أثنـاء تجديفهم وأثنـاء قيامهم بسحب حبـل المرساة (البريخة) . أما النهمة فتعتمد على مغني وهو النهام ، وأدوات إيقاعية هي الطبل والطوس ، خاصة عنـد الخـطف بالشراع ، ونحبة يرددها « اليواب » أو « الكورس » وهـم هنا البحارة ، ويلاحظ على أغاني اليرار أن هناك أغاني يرار خاصة بجر المجاديف في سفن الغوص وأخرى خاصة بجر المجاديف في القوارب الصغيرة « القلص » .

هذا ويستمر التجديف حتى تصل السفينة إلى المياه العميقة عندها يقوم البحارة بالاستعداد لرفع الأشرعة . فإذا كان اتجاه الرياح (الولم) مواتيا فإن السفينة تقلع بواسطة الشراع في اتجاه هيرات ظهر الحاله وهي أقرب منطقة توجد بها مغاصات لؤلؤ بالنسبة لسفن الغوص التابعة لمدينة الدوحة . أما إذا كانت الرياح ساكنة فإن السفينة تظل في مكانها تنتظر هبوب الرياح الشمالية

الغـربية بالـذات التي تناسب الإقلاع نحو مغاصات اللؤلؤ الشرقية فمعظم أنـواع السفن المستخـدمة كانت من نوع « الدومي » أي التي تسير بواسطة الشراع والمجداف .

وكانت عملية « الخطف بالشراع » التي تقوم بتنفيذها جميع السفن المتجهة إلى المغاصات في يوم « الدشة » من أهم الاحتفالات التي كانت ترافق الأعمال الأساسية التي تجري على ظهر السفينة في ذلك اليوم . فبعد أن ينتهي البحارة من سحب المـرساة أو التجديف ، يأمرهم النوخذا بخطف الشراع قائلاً : شراع . فيتجه البحارة إلى الخن الذي توجد به الأشرعة ويخرجونها وهم يؤدون شيلة غنـائية خفيفـة مثل (هو يامليه . . هو يامليه) . فإذا تم تثبيته على الـدقـل وبـدأوا برفعه ينهم النهام بأغنية « ياأمة محمد » وهي افتتاحية أغاني الخطفة في يوم الدشة أثناء قيام البحارة بشد الشراع على الدقل الكبير . وذلك بصوت خفيض وبدون مصاحبة أيَّة أدوات إيقاعية ويرد عليه البحارة بكلمة « يالله » . انظر النموذج الآتي[9] :

النهـــام : ياأمة محمد ياأصحاب الدين

اليواب : يالله

النهـــام : هيه ياهيه

اليواب : يالله

النهـام : يارحمن يارحيم

اليواب : يالله

النهـــام : يامسافرين

اليواب : يالله

النهـــام : في أمان الله

اليواب : يالله

تستمر تلك الافتتاحية أثناء رفع الشراع حتى يصل إلى قب الدقل (أي قمتـه) وحينها يبدأون بتثبيت « حبل البسة » يتغير الأداء ليصبح سريعاً مع

مصاحبة الإيقاع ليغني النهام أغنية البسة الشهيرة وذات اللحن الجميل « يالله ويالله » وهي كالآتي[١٠] :

يـــالله ويـــالله ويـــالله
يـــالله ويـــالله ويـــالله
هــولــو يــارب ســهــل علينــا
خـــير مـــن الله يجـــي
ما يفـرح إلا من الأهــل والجـار
ولا يغــمض إلا الحــاســدينــا
ويعــل مــولاك يرحـــم
يعــطيك مـــا يـــاك
ومــا يعــطـــي إلا الله
الــعــافــيـة والــســلامـة

تشـــير كلمات الافتتــاحية وأغنية البســة إلى الإيمان العميق بقـدرة الله والاتكال عليه في الرزق فهم متجهون إلى موسم رزقهم معتمدين على جهدهم وعلى عطاء الله الذي لا يحده شيء .



بحارة السفينة وهم يصفقون ويغنون أثناء
رفع الشراع على دقل السفينة
المصدر : مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية

يستمر النهام والبحارة في أداء لون « البسة » فترة غير قصيرة من الزمن وهم يرقصـون ويصفقون . وتكون مشاركة البحارة بواسطة التصفيق وترديد بعض الكلمات مشكلين خلفية جميلة للأغنية . وفي الوقت الذي تكون فيه كلمات الجزء الأول من الخطفة « ياأمة محمد » ثابتة ولا تتغير ، نجد أن الجزء الثـاني وهـو « البسة » قد تختلف كلماتها من خطفة إلى أخرى . حيث كان النهـامين يهتمون كثيراً بتلوين كلماتها وإدخال بعض كلمات الغزل الرقيقة . انظر النماذج التالية :

أولاً[11] :

يـــالله ويـــالله ويـــالله
هـــــولـــو لا والله
هـــــيلي لا والله
مـن يـوم ركـبـو عـمامـي
أنـا حفـيت عـيوني ومـنـامـي
أنـا مـن شـافـني قـال
لا حـول ياولـيد مفـتـاح
أنـا هيلي لا والله
يوم شرقـو الـسـفـادير[12]
يبـون دار الـغـنـادير
يالـيت لي جنـح باطـير
وأفـتـك من ذا الـعـذاب

نموذج آخر[13] :

يالـلّـه ويالـلـه ويالـلّـه
هولـو لا والله
هولـو ياسـيد احـبـابي

هولـــو من يوم أقـــبـــل عيوني
هولـــو عمـــيت عيوني
هولـــو من زود مابـي
وقـــال لا حول ياولـــيد
وضـــيع قلبـــي الـــشـــبـــاتي
هولـــو ما ريد غنـــاتي
والله لصـــير مثـــلك
هولـــو لومـــي عذاري
هولـــو ياســـاكـــن دبي
هولـــو لا والله
هـيليه وصـــلي وســـلم
على نبـــينـــا كثـــير الـــســـلامـــي

ويلاحظ من النـماذج الثـلاثـة لأغنية « البسة » بساطة تركيب الكلمات وإمكـانية التغـير النسبي في تراكيبهـا تلك . هذا بالإضافة إلى تناولها لعدة مواضيع ثابتة برغم تغير تلك التراكيب . فالموضوع الأول هو ذكر الله سبحانه وتعالى والاتكال عليه والموضوع الثاني يتمثل في ذكر الهدف الأساسي وهو السفر مثل (من يوم ركبو ، يبغون ، شرقو) . أما الموضوع الثالث فهو التحدث عن مشاعر هؤلاء البحارة المسافرين تجاه أحبائهم الذين خلفوهم ورائهم . وكلمات أغاني الخطفة تنتمي إلى نوع الشعر الذي يطلق عليه اسم « المويلي » وهو أحد أنـواع الشعـر المستخدمة في أغاني العمل البحرية واحد أعمدة أدب البحر الخليجي آنذاك .

هذا ويمكن أن نشير هنا إلى وجود تشابه ما بين كلمات الجزء الثاني من نهمة « يالله بدينه » التي تفتتح بها الأعمال البحرية المختلفة مع كلمات أغاني « البسة » خاصة في الجزء الذي يركز على موضوع الغزل . كما تتميز أغاني

البسة بسرعة اللحن والأداء الحماسي من قبل مجموعة من النهامين (يمكن أن يشترك فيها ثلاثة) حيث يتناوبون الغناء ويتبادلون الأدوار فيدخل صوت أحدهم على الآخر ليكمل الجزء الذي أداه زميله بحيث لا ينقطع الأداء طوال الأغنية مع مشاركة مستمرة من « اليواب » الذين لا يتوقف أداؤهم على نحبه معينة يؤدونها بل تكون مشاركتهم أساسية طوال أداء لحن (البسة) مشكلين خلفية مستمرة من التصفيق والتلفظ ببعض الكلمات التي تتداخل مع كلمات النص الأساسي (المرن) ومع اللحن ، مما يعطي انطباعاً بكونهم جزء أساسي من لحن الأغنية بالإضافة إلى صوت النهامين والإيقاع .

بعد الانتهاء من رفع الشراع وتثبيت البسة يقوم البحارة بشد حبل (الشرت) عند ذلك يتحول اللحن إلى « المخموس » الذي يكون بطيئاً مقارنة بلحن « البسة » فينهم النهام ويشارك البحارة بالجواب عليه . وهو عبارة عن خطفة ثانية من حيث بذل الجهد والغناء المصاحب .

يبدأ « المخموس » بشيلة جماعية من البحارة وهي (هوليا . . هوليا . . هوليا) بعدها ينهم النهام هيليه صلاة ربي عليك يامحمد) فيرد عليه البحارة (هوو . . هيه) مقلدين بذلك صوت هدير الأمواج أو بما يشبه رغاء الإبل مكونين خلفية وراء صوت النهام الذي يكرر « عليك يامحمد ، صلاة ربي عليك يامحمد » ثم تقوم العدة بالمشاركة بالضرب على أدوات الإيقاع المتوفرة حسب إيقاع المخموس . ويتميز لون المخموس بفترات من التصفيق الجماعي المنظم . ويسمى « الهيمة » أو « هيمات » .

وبعد الانتهاء من شد الشرت . يسألهم النوخذا : سامت . فيردون : نعم سامت (أي مشدود) ثم يأتي دور الدامن فيأمرهم : دامن . فيقومون بتثبيت الدامن (وهو الحبل الذي يتحكم في شد الشراع أوإرخائه) بعدها يأمرهم بأن ينجبوا خشبة الدستور ، التي تتحكم في اتجاه مقدمة الشراع العود

والتي تسمى « اليوش » . وأثناء أدائهم لتلك المهمة ينشدون بعض الهوسات البحرية . فإذا شار الدستور « كبروا عليه » مثلما يفعلون عند سحب السفينة إلى أن يتمكنوا من نسعه .

فإذا وجد النوخذا أن السفينة لايزال سيرها بطيئاً يأمر برفع شراع الغيلمي ، قائلاً : غيلمي . . غيلمي . والغيلمي أساساً هو شراع أصغر من الشراع العود وله دقل - صارية - خاص به وتعتبر السفن التي تحتوي على دقلين أي شراعين من السفن الضخمة . وعملية رفع هذا الشراع تكون بنفس طريقة الشراع العود وبنفس الألحان المصاحبة .

نموذج لأغنية أثناء رفع « الغيلمي »[١٤] :

هولو . . هولو . . هولو
يابوبشيت القيلامي[١٥] يا ناس
وجبع[١٦] بالشيلة هيليه
بوبشيت القيلامي ياناس
هولو خلي ولا أنت بخير
خلي بوبشيت القيلامي
جع بالشيلة ياناس

وقد يقرر النوخذا رفع شراع الجيب - وهو أصغر الأشرعة الموجودة على السفينة - خاصة عندما يريد الخروج من الميناء أو عندما يكون المكان الذي يريده قريباً . فيقوم البحارة بغناء لون معين أثناء الخطف بالجيب أي أثناء رفع ذلك الشراع . وبمشاركة النهام بعد شيلة جماعية من البحارة يكررونها أثناء حركتهم مثل (صل على النبي . . صل على النبي) .

نموذج أغنية أثناء رفع « الجيب »[١٧] :

يبدأ النهام بترديد بعض الكلمات لكي يضبط الإيقاع مثل : هولو . . هولو . . ليا أو هيه . . ياهيه . . هيلا ثم يغني ويرد عليه البحارة بكلمة

« هووه . . :

هـولـو جدم صلاتي
هـولـو صـلاتـي
عـلـى محـمـد
شـفـيـع الـعـبـادي

وتشـارك الأدوات الإيقـاعية أثنـاء أداء لون الجيب ويقوم البحارة بأداء التصفيق بالكفوف .

ملاحظـات عامـة :

يلاحظ على أغاني العمل أنها تستمر حتى حين الانتهاء من أداء العمل الذي يأخذ زمنا طويلاً بسبب اعتماده على القوة العضلية وذلك نتيجة نقص الوسائل التكنولوجية . ويظهر من التسجيلات المتوفرة لتلك الأغاني التكرار الـزائد لكلمات الأغنية في حين ذكر الإخباريون أنهم كانوا لا يكررون تلك الأغاني عند أدائهم لتلك الأعمال وإنما يلحقون الأغنية عندما تنتهي بأغنية أخـرى . . وهكذا حتى ينتهي العمل . وهذا بخلاف ما يحدث الآن حين نسمع ذلك التكرار لنفس الكلمات في التسجيلات - سواء في الاستوديوهات أو في مقر الفرقة أو العدة - وقد يرجع ذلك إلى نقص في الكم الذي يحفظه النهـام أو نسيانـه لأجزاء أو أغاني كاملة منها فلا يتمكن من إلحاق الواحدة بالأخرى كما كان يحدث قديماً .

كذلك فإن التكرار قد فرضه تحول نمط الأغنية من كونها أغنية عمل إلى أغنية طرب . والاستطراب يتطلب المط والتطويل والتكرار والإعادة . ولا نعلم مدى تأثير ذلك الأسلوب في الأداء التطريبي على الأداء الحقيقي لألحان أغاني العمل على سفن الغوص .

وعلى الرغم من ذلك التكرار والمط ألا أن الفترة الزمنية التي أديت من خلالها تقل كثيراً عن الفترة التي كان البحارة يستغرقونها أثناء تأديتهم لتلك الأعمال على سفن الغوص .

ومن ضمن الملاحظات العامة أنه ليست كل سفن الغوص كان يوجد بها نهامة أو عدة . لذلك فإنهم - كما سبق وأن أشرنا - يقومون بأداء أعمالهم وهو يرددون بعض الهوسات أو الشيلات الجماعية سواء عند سحب المرساه أو الخطف بالشراع .

فمثلاً عندما يقومون برفع السن أو المرساة يغنون هذه « الهوسة » أثناء سحبهم لحبل الخراب .

لا تهيضونه[١٨] . سبع نايم
لا تهيضونه . سبع نايم

قد نشعر من خلال ترديدهم لهذه الكلمات أنهم يشبهون المرساة بالسبع وهو الأسد الرابض أو النائم ويطلبون من بعضهم البعض عدم أزعاجه أو إغضابه سواء بالصوت أو بالحركة .

هذا ويكررونها فترة من الزمن ثم يلحقونها بهوسة أخرى وقد يستعاض عن الهوسة بإحدى الشيلات مثل (هو يالله أو ياملية) وهي في الواقع مجرد كلمات كانت تساعدهم على تنظيم أدائهم للعمل نفسه .

فإذا قاموا بسحب الشراع رددوا أيضاً بعض الشيلات مثل :

داري على مداري
الحي منا يادار اييج
الحي منا يادار اييج

فيستمرون بترديدها حتى يرتفع الشراع إلى قمة الدقل . فإذا بدأوا بشد حبل الشرت شالوا هذا الشيلة :

الــشــرت حبــل ممــدود
يالله بــخــير يــعــود

وقد يمارسون نوعاً من الغناء الذي قد لا يزيد عن كلمة واحدة يرددونها طوال فترة أدائهم للعمل . ويطلقون على هذا اللون « الدوهال » ومن أغاني الـدوهـال : « هيليه . . . هيليه » أو « هو يامليه . . . هو يامليه » أو « هو يالله . . هو يالله » . والبعض يطلق عليهـا اسم « الحنده » والبعض الآخر يسميها « حدوه » أو حتى شيلة .

وفي يوم الدشة تخرج السفن من الميناء على شكل مجموعات متفرقة وليس بصورة جماعية ، فكلما جهزت إحدى السفن أو مجموعة منها خطفوا وأبحروا تجاه الهـيرات القـريبـة وبعضهم قد يتجه إلى جزيرة « السافلية » . ويصف الشاعر حركة السفن في أيام الدشة :

سنـياره جل الـضحى[21] مستعينــه
ومخـاير[22] يبي قماش[23] البـطينة[24]

يقدم الشاعر هنا صورة غنية عن حركة السفن في تلك الأيام المنطلقة إلى مغـاصات اللؤلؤ في مجموعات متتابعة وقد استعانوا بالله مختارين الهير الذي يأملون أن يجدوا فيه اللؤلؤ الثمين .

وهذه أبيات أخرى تصف أيضاً حركة السفن في أيام الغوص من جميع الأنواع (البقارة والبتيل والبوم والسنبوق والجيلبوت والشوعي . . إلخ) .

دوب[25] السفن تنقل ولا من بطاله
طرب من عرفــه الــبــطن لاهــيين

فالسفن مستمـرة في حركتهـا تنتقـل حاملة البحارة والعمال وهم يغنون ويلهون أثناء بحثهم عن اللؤلؤ .

مع ذلك فإن أيام الركبة كانت إيذاناً بموسم الفراق والقلق على الأهل والأبناء من الطرفين سواء سكان البحر المتنقلين على سفنهم طوال الموسم أو سكان البر من النساء والأهالي وكبار السن .

فالبحار لا يرغب بالرحيل وترك أهله وأطفاله أو محبوبته . وهذا الشاعر يصف مشاعره عندما هبت الرياح الغربية التي تعني أن موعد انطلاق السفينة قد حان (إذ أن تلك الرياح هي أنسب شيء للانطلاق بالأشرعة إلى مغاصات اللؤلؤ الشرقية) فيقول :

هب الغــربي ودق البــاب بسـاعـة
دخيلك يانـوخـذا هيد[٢٦] لنا ساعة
بنـــوادع الـزين وبنشبـع من وداعـه
نار الجحيم ولا فراق الـزين ساعـة

وهذه أبيات أخرى[٢٧] :

جلو بي وأخــلو بي الـســيف
فارقــت من صافي ودادي
قرحـــت ما بين المــجـاديف
حزين وأطــالــع بلادي

وفي الجانب الآخر نجد أن المودعين على الشاطىء تهيض شجونهم عند رؤية السفن وهي تنطلق بالأحباب فلا يعلمون أن كانوا سيرجعون إليهم أم لا . فكان الوداع مؤثراً جداً . حيث تنشد النساء والأطفال :

وين شليتي[٢٨] شل السـعـد وياج
وين شيلتي يالــله نوخـذاج

وهي عبارة عن دعاء للسفينة وركابها في كل مرة تقلع بأشرعتها وأن يكون الحظ السعيد حليفها (وهو هنا صيد اللؤلؤ الثمين) وأن تسير في ظل رعاية الله وحمايته . كذلك يغنون في ذلك اليوم هذه الأغنية :

يارايح الـغـوص ليت أنـا وياك
باقعد على الفنة وباسمع حجاياك[٢٩]

ويظهر الافتخار بالسفن المشرعة في البحر في ذلك اليوم . وهذه الشاعرة تفتخر وتصف سفينة أهلها المقلعة :

برزان سوا له ينـحـات بيطـير
لي من خطف بالعـود سوا المناكـير
والـله ايبره[٣٠] عن جميع المـقـادير
عمي الحسـود وضـاع فكـر المنادي
برزان يالـلي على الـصـيد عالي
مثـل الـطير الـلي على الصيد عالي

إن الشـاعرة هنا ترسم صورة حية لعملية إقلاع السفينة تلك . فتشبّه سرعتهـا عنـد الإقلاع وكأنها قد نبتت لها أجنحة بدلا من تلك الأشرعة . فشراعها الكبير يفعل فعل الأجنحة لدى الطيور . ثم تدعو لها يحفظها الله من كل سوء وتدعو على عين الحاسد بأن تصاب بالعمى عند رؤيته لها . ثم تعود وتشبه تلك السفينة بالطير الذي يصيد فريسته في الهواء من قوة أجنحته وسرعة طيرانه .

وهذه الأبيات أيضاً تصف سفينة أخرى أثناء انطلاقها إلى مغاصات اللؤلؤ :

هاذاك الـشـارد قلط سار[٣١]
والـطوس والـطبـل في وسـطه رنى
له مدفـع في الـصـدر ثار

الأبيات تصف احتفال الشارد ببدء الموسم عندما تقدم في الميناء متجها إلى المغاصات وقد قرعت الطبول والطوس وباقي أدوات الإيقاع في وسطه وهو يسير وتم إطلاق المدفع الموجود على ظهره احتفالا بالمناسبة .

نموذج آخر :

النيرة[٣٢] وشراعج الماهود[٣٣]
يا أم السلاسل عمارينه
قوم يافلان وانسع الدستور
طار النشر من فرامينه

يقوم الأطفال بغناء مثل هذه الأغاني على سفن آبائهم وقبيلتهم . والنيرة هنا اسم إحدى السفن التي تتميز بأشرعتها المصنوعة من حرير الماهود الغالي . وتصف الأبيات عملية نسع الدستور أثناء انطلاقها إلى الهيرات وقد رفعت الأعلام على فرامينها احتفالا بالمناسبة .

وفي أثناء تقدم السفن تدعو النسوة للبحارة بأن يحفظهم الله من كل شر ويكررن هذا الدعاء « في لوح[٣٤] محفوظ . . في لوح محفوظ » . كما وينشدن بعض الأشعار بتلك المناسبة مثل :

كل الخشب جلو وخلوك ياطوق
وأنا اتريا رحمه الله

ويكون حزن الأمهات عظيماً في ذلك اليوم خاصة عندما يكون أحد أبنائهن على ظهر إحدى تلك السفن وبالذات عندما يكون صغير السن (تباب) فهي تشفق عليه من أخطار البحر ومشقة العمل على ظهر السفن ، أو من سقوطه في البحر أثناء نومه نتيجة ضيق الأماكن على سطح السفينة فلا يعلم بسقوطه أحد . وهذه إحدى الأمهات تصف مشاعرها عندما انطلقت السفينة التي تحمل ابنها قبل بزوغ الفجر بهذه الأبيات :

شالوا عليه العود قبل الفير ينطر[٣٥]

توانى[٣٦] مسـيرة وألحـق الـغـيلمـي يمـشيه
يبـون هير مادح الـزين بالمـحـار
وكـود على الـلي ما يواحـي[٣٧] يهرب فيه
وحـلات الـصبـي يركب على ناسعت لزوار[٣٨]
وتـدير ألي من سمـعت الـصـوت وتـصـاغيه

تصف الشاعرة عملية انطلاق تلك السفينة التي يركب عليها فلذة كبدها فتقول أنهم قد رفعوا شراعة الكبير (العود) قبل بزوغ الفجر وعندما وجدوا أن السفينة تسير سيراً متمهلاً قرروا رفع الشراع المساعد في مثل تلك الحالات وهو « الغيلمي » لكي تزداد سرعتها أكثر فأكثر فهم يريدون الوصول إلى هير (مغاص) اللؤلؤ الذي اشتهر بجودة محارة (من نوع الزني أو الزين) . وذلك الهـير المقصـود يتصف بالعمق الشديد ومن لا يتميز بالمهارة والحذر يتعرض للغـرق فيه بسبب عمقه وتياراته المائية . ثم تعود فتصرح برغبتها في أن ما يشرفهـا فعـلاً هو ركوب ابنها على الناقة الأصيلة المطيعة التي تلتفت عندما ينادي عليها وتسلم قيادها لراكبها فلا خطر عليه منها بتاتاً . فحياة البر بالنسبة لها أجمل وأسلم عاقبة من حياة البحر وكم تتمنى لو أن ابنها يركب الناقة بدلا من السفينة .

ومما سبق يمكن أن نلاحظ وجود صراعٍ ثقافي كبير كان يعاني منه السكان ما بين حياتهم الصحراوية التي يعرفونها جيداً وبين حياة البحر المتقلبة الخطرة ، وقـد فرضتـه تلك الازدواجية التي كان يمارسها السكان ما بين حياة الرعي واقتصاديات اللؤلؤ، والتي نتجت أساساً عن موسمية صيد اللؤلؤ وفقر الظهير الزراعي . ولذلك تمازجت في المجتمع ثقافتان مختلفتان نتيجة أسلوب الإنتاج المتبـع وتقسيم المهن التي تبعهـا تقسيم في المكـانـة واختـلاف المسميات والمصطلحات والفنون الثقافية ما بين الصحراء والبحر . ولقد عانى الرجال في الـواقع أكثر من النساء من الصراع بين الثقافتين ، حيث لم تتعرض النساء

لتلك التغيرات الشديدة في نظام تقسيم العمل ما بين البرّ والبحر والاحتكاك المباشر بمصطلحات وفنون مختلفة وعلاقات اجتماعية تختلف باختلاف المكان، فعلاقات العمل على ظهر السفينة تختلف جذرياً عن علاقات النسب والقرابة في البرّ.

١ - لقد كان لكل يوم من أيام الأسبوع وصف معين، يتفاءلون أو يتشاءمون منه، فمثلاً يفضلون السفر في يوم الجمعة ويقولون: الجمعة ملائكة الله مجتمعة، وإن السبت نبت، وهذا لأن النبت معناه نبت الشيء وهو عكس ذبول الشيء أما الأحد فهو محايد ويقولون الأحد ما حد على حد، أي لا تشاؤم ولا تفاؤل.

٢ - اللوبي: الخطفه.

٣ - انظر المرجع الآتي: محمد طالب الدويك، الأغنية الشعبية، ج ٣، وزارة الأعلام، دولة قطر، ١٩٧٥، ص ١٠٣.

٤ - أداء فرقة سعد بن عواد، تسجيلات مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية.

٥ - تتميز سواحل المدن الشمالية بضحالة المياه وبوجود «مساكر» صيد الأسماك وهي عبارة عن حواجز صخرية من صنع الإنسان، لذلك كان بحارة السفن يلجئون إلى التجديف لمسافات طويلة للوصول إلى المياه العميقة والابتعاد عن المساكر (مصائد الأسماك) التي تكون خطرة جداً بالنسبة للسفن.

٦ - وطر: زمن

٧ - للعى: البكاء والعويل.

٨ - البوم: أحد أنواع السفن. يشبه محبوبته بالدانة التي يجنيها بحارة تلك السفينة في جمالها وغلاء ثمنها.

٩ - أداء فرقة سعد بن عواد. تسجيلات مراكز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية.

١٠ - أغنية البسة أداء النهام سالم المال ، تسجيلات الدراسة الميدانية .

١١ - أداء فرقة سعد بن عواد ، الأسطوانة رقم (١) أغاني العمل على سفن الغوص في الخليج ، إنتاج مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية ، ١٩٨٧ .

١٢ - السفادير : يرمز إلى شراع السفديرة الذي يرفع عند اشتداد الرياح . انظر المرجع الآتي : محمد الدويك مرجع سابق ، ص ٢٥ .

١٣ - أداء فرقة سعد بن عواد ، من تسجيلات مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية .

١٤ - أغنية الغيلمي من أداء : النهام سالم المال . تسجيلات الدراسة الميدانية .

١٥ - القيلامي : هو أحد أنواع البشوت التي تلبسها المرأة آنذاك .

١٦ - جبـع : عندما تغطي المرأة رأسها بطرف كم الثوب أو الخمار (وهو الشيلة) يقال جبعت .

١٧ - من أداء النهام : مبارك بن سعيد السليطي ، تسجيلات الدراسة الميدانية .

١٨ - لا تهيضونه : لا تزعجونه أو تغضبونه .

١٩ - اييج : يعود إليك . أي أن الحي منا الذي سينجو من هذه الرحلة سوف يعود إلى البلاد .

٢٠ - السنيار : مجموعة السفن المترافقة واحدة تتبع الأخرى تسمى سنياراً .

٢١ - جل : انطلق أو أبحر .

٢٢ - مخاير : يبغي مختاراً .

٢٣ - قماش : اللؤلؤ .

٢٤ - البطينة : أحد أنواع اللؤلؤ الثمين .

٢٥ - دوب : دائماً أو باستمرار .

٢٦ - هيد : تأخر .

٢٧ - النهام بن حاقول ، جريدة الخليج ، العدد ٢٢١٢ ، ١٩٨٥/٥/٦ ، دولة الإمارات .
٢٨ - شليتي : أقلعت ، وأبحرت .
٢٩ - حجاياك : حديثك .
٣٠ - ايبره : يجيره أي يحفظه من كل سوء .
٣١ - قلــط : تقــدم .
٣٢ - النيرة : جيلبوت ملك الشيخ علي بن جاسم آل ثاني في مدينة الضعاين .
٣٣ - الماهود : أحد أنواع الأقمشة الحريرية الغالية الثمن أو الأغلى سعراً في المنطقة .
٣٤ - اللــوح : هو الخشب والمقصود هنا السفينة .
٣٥ - ينطر : يبزغ .
٣٦ - توانى : تأخر أو تمهل .
٣٧ - يواحي : يحــذر .
٣٨ - ناسعة لزوار : الناقـة .

الفصل الثالث

انتشار سفن الغوص في مغاصات اللؤلؤ

يبدأ الموسم بما يسمى « أول السنّة » بعد الانتهاء من احتفالات « الرجيان » أو إنـزال السفن إلى البحـر (أو إلى الـراجي) واحتفالات الوشار (إذا كانت السفينـة جديدة) واحتفـالات الـركبة أو الدشة التي يعقبها انتشار السفن في « الهيرات »[1] أو مصائد اللؤلؤ .

وتوجد معظم مواقع مصائد اللؤلؤ القطرية ، أو التي تقع في المياه الدولية ، في المنطقة المقابلة للساحل الشرقي لشبه جزيرة قطر والساحل الشمالي الشرقي والذي أثر بالتالي على مواضع وتوزيع المدن القطرية . حيث تقع معظم المدن القـطرية على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة ورأسها الشمالي . ومما شجع على اختيار تلك المواضع وجود « الخيران » التي هي عبارة عن ظواهر طبيعية متوفرة على السـاحل الشرقي وكانت بمثابة مراسٍ طبيعية للسفن التي كانت الوسيلة الأساسية في الأنشطة التجارية وفي أنشطة الغوص الهامة جداً بالنسبة للمجتمع آنذاك .

لذلك نجد أن معظم سفن الغوص القطرية تتجه شرقاً دائماً في حركتها أثناء موسم الغوص . فإذا خطفت السفينة من الميناء وليكن ميناء مدينة الدوحة فإنها تحتاج إلى حوالي خمس ساعات لكي تصل إلى (ظهر الحالة وهي أقرب الهيرات الكبيرة إلى الدوحة) شريطة أن يكون الهواء مناسباً جداً وتكون سرعة السفينة عند الحد الأقصى لها . ومعظم السفن في أول السنة تبندر في اليوم الأول للدشة في « الجـزيرة » أو في ظهـر الحـالة[2] . وهنا يقوم طاقم السفينة بإعداد الحبال والأدوات التي سيستخـدمـونها في عملهم . وفي اليوم التـالي تتجه السفن إلى الهـيرات القـريبـة وتطرح (أي ترسو) في إحداها . وقد يقرر بعض النواخذة الأبحار في الليل خاصة « النواخذة » الذين يتميزون بخبرتهم الواسعة . فيختار إحدى الهيرات ومن ثم يتوجه إليه مستعيناً بالبوصلة في تحديد ذلك الاتجاه ، كما يستهدي بالنجوم في السماء . لكن هناك من النواخذة من يقرر العمل منذ اليوم الأول « للدشـة » خاصـة إذا كان الـطقس مناسباً للغطس إذ أن جل اهتمامه

منصب على الغوص على اللؤلؤ فهدف الرحلة الاقتصادي يتمثل في جني أكبر كمية ممكنة من اللؤلؤ ، لذلك فهو لا يتوانى عن انتهاز أي فرصة قد تساهم في زيادة محصول السفينة من اللؤلؤ .

وتبدأ السفن في ممارسة الغوص في « الحواد » القريبة من السواحل وهي عبارة عن ضلوع رملية ممتدة في البحر ولها أساس من الصخر وتغطيها مياه المد[٣] ، ومن أهم الهيرات الموجودة بها (بالصلابيخ ، الرقة ، مرخان السطح ، أم العوارض) . وهي هيرات تقابل شواطىء مدينة الدوحة والوكرة . وتستخدم السفن جزيرة « شراعوه » وظهر الحالة كبندر أثناء ممارستها للغوص في هذه المنطقة . تتبع هذه المنطقة وإلى الشرق من الساحل الشمالي هيرات (صوفان ، أم حصاه ، القريمة ، الحرف ، بوحملة ، لفان . . وهيرات أخرى عديدة) . وهي الهيرات التي يغوص بها بحارة السفن التابعة للمدن الشمالية (كالذخيرة والغارية والحويلة والخوير والمفير والرويس وأبو الظلوف والعريش وفريحة) ، في نفس الفترة الزمنية ، وهي هيرات قريبة من الساحل الشمالي . وبعد أن تمر على سفن الغوص « قرعة » . أي خمسة أيام « يتمدين » البحارة فيها - أي استقروا وتعودوا على الغوص فإكتملت لياقتهم الجسدية - « الغيص » يتعود على الغوص في الأعماق . « والسيب » على عمليات سحب الغاصة والتجديف . يكون الطاقم في كامل لياقته للعمل من أول النهار حتى آخره . وكلما مالت المياه إلى أن تصبح أكثر دفئاً تبدأ السفن بالتوغل أكثر في مياه الخليج فتصل إلى هيرات (أم العظام ، خريس ، الشاغي ، الجرولة ، بالعروق ، البييمه ، العد الغربي ، أم الجتيب ، حده مجيبل ، بولمسان ، الزهرة ، بوقريعة ، بوقرعة . وهو أكثر الهيرات السابقة عمقاً حيث يبلغ عمقه ١٤ باعاً) وتستخدم السفن في تلك المنطقة جزيرة شراعوه ، وجزيرة ديينه وإلى الجنوب منها جزيرة الاسحاط (اللتان تحيط بهما الهيرات من كل جهة) كبنادر أثناء هبوب الرياح القوية وخاصة الشمالية منها . كذلك تستخدم السفن « الحالات » القريبة منها وأهمها حالة « أم الخيفان » .

والحالة : ظاهرة طبيعية تكثر في المناطق القريبة من السواحل ، وهي عبارة عن مرسىً طبيعي تحيط به منـطقـة رملية مرتفعـة تظهـر في وقت انحسـار المياه (الجزر) . وللحالة مداخل عميقة تقوم السفن بالمرور من خلالها إلى المنطقة العميقـة الواقعة في وسط الحالة . وتبندر هناك حتى تهدأ الرياح ثم تخرج مرة أخرى من الحالة وتتجه إلى الهيرات القريبة .

هذا عن المنطقة القريبة من الساحل الشرقي لشبه جزيرة قطر . أما بالنسبة للمـدن الشـمالية فإن سفن الغـوص التـابعـة لها تصل إلى هيرات (الغليل ، الحرف ، أم الجش ، صوفان ، بالهنبار . . . إلخ) . وتستخدم جزيرة « رأس ركن » كأحـد أهم البنـادر في المنطقة الشمالية . وهي جزيرة قريبة من الرأس الشمالي لشبة جزيرة قطر .

كما أن هنـاك بعض « الفشـوت »[٥] الشهـيرة التابعة لقطر . تقوم السفن باستخدامها باستمرار . وتكثر تلك الظاهرة في المنطقة الجنوبية المقابلة للطرف الجنوبي لشبة جزيرة قطر ومن أكبرها فشت « الحول » و « الحريف » و « الحديد » ويوجـد في المنـطقة الوسطى فشت « الغبي » إلى الشمال من جزيرة « العالية » القـريبة من مدينة الدوحة . وإلى الجنوب والشرق منه هيرات (بالصلابيخ ، المعراض ، الحربة ، الزهرة) .

أما بالنسبة للمنطقة الشمالية فإن فشت « الديبل » كان أهم وأشهر الفشوت التي كانت سفن الغوص ترسو بها . والذي كان يعتبر - بالإضافة إلى كونه ملجأً طبيعياً للسفن أثنـاء هبـوب الـرياح العـاتية - بمثـابـة محطة للتزود بالمياه من « العـبرات »[٦] التي تزور الفشت باستمرار وهي محملة بالمياه ، فتذهب سفن الغوص إلى « الديبل » لكي تتزود بالمياه من تلك العبرات .

وبعد أن تزداد، حرارة الطقس وتبدأ مياه البحر بالدفء ، أكثر فأكثر حينئذ تتوغل السفن في مياه البحر وتبتعد عن السواحل تدريجياً . فكلما ابتعدت ازداد

عمق هيرات اللؤلؤ وبالتالي تزداد برودة المياه . لذلك فإن الأزمنة والفصول ودرجات الحرارة هي التي تحدد المسافات بالنسبة لنشاط وحركة سفن الغوص وبالتالي الهيرات التي تتمكن من الوصول إليها .

لذلك فبعد أن يتوسط فصل الصيف تتجه سفن الغوص إلى مسافات أبعد جنوباً وشرقاً وشمالاً . فتصل إلى هيرات (عشيرج ، العد الشرقي وهو هير عميق يبلغ عمقه حوالي ١٣ باعاً والذي تتبعه هيرات - الخرايس وبوقمر والجعابة - حالول والهيرات التابعة له مثل - أم الأقواع وأم الحطب ويليها حرف الياهي والجعابي - أم الطشاش ، داس ، أبا الحنين ، أم الخشاش ، محزم) وبندر تلك الهيرات جزيرة « حالول » في الشرق وجزيرة « دلمه » بالنسبة للهيرات الجنوبية والتي من أهمها هيرات (أم الصلصل ، أم العمادات ، المداميج ، بالمسان) . وتتميز جزيرة « دلمة » بوجود مياه عذبه بها وبكونها تعمر في موسم الغوص ويقام فيها سوق للؤلؤ [٧] » .

تلي تلك الهيرات حواد أخرى توجد بها هيرات (أم البندق ، أم الشيف وهو هير متسع يصل عمقه إلى ١٢ باعاً ، بالبخوش وهو هير كبير يصل عمقه إلى ١٤ باعاً ، ياسر ، جوكي ، بشابش ، أبا الحنين الكبير - قرب جزيرة داس - ، عوافي ، بوحصير ، بالخلاخيل ، بالهنبار . . وهيرات أخرى عديدة) . وتتميز هذه المنطقة بكثرة واتساع مساحة بعض هيراتها وعمق بعضها الآخر . وتستخدم سفن الغوص جزيرة « داس » كبندر لها في تلك المنطقة . « وتتميز جزيرة داس بوجود بندران ، يقع أحدهما في الشرق ويقي السفن من عواصف الشمال ، ويقع الآخر في الغرب ويقي السفن من عواصف الجنوب »[٨] . كما توجد في المنطقة جزيرتان مشهورتان هما أزركوه وجرنين . وهي بنادر مهمة لسفن الغوص .

تستمر السفن في الاتجاه شرقاً وشمالاً حتى تصل إلى الهيرات البعيدة فتختلط مع هيرات ساحل عمان شرقاً وجنوباً مثل هير (الصير ، المشابك ،

بالزريع ، بوسكين . . إلخ) أما شرقاً فهناك هيرات عميقة ونائية مثل (نيوه الصايغ ، نيوه الخليفي ، نيوه جشف ، نيوه ربيعة ، هير بو الطحين ، رقة البنـد ، رقة محمد) . وتلك الهيرات بمثابة أماكن ضحلة وسط مياه عميقة وهي تعتبر آخر الهيرات شمالاً وشرقاً . لذلك تعبر السفن مسافات من المياه العميقـة حتى تصـل إلى تلك الهـيرات النـائية والتي تم اكتشـافها من قبل أشخـاص تم إطلاق أسمائهم عليها . كما تتميز تلك الهيرات بتباعدها عن بعض بعكس الهيرات السابقة الكثيرة والمتقاربة .

أما إذا اتجهت السفن ناحية الشمال فإنها تتشابك مع هيرات البحرين مثل هير (شتيه ، بوعمامه وبولثامه بوصور وهي هيرات عميقة ، وهير بالخرب الذي يبلغ عمقه حوالي ١٥ باعاً ، أم العرشان حوالي ١٣ باعاً) . هذا ولم يكن هنـاك مانع في أن تغوص السفن التابعة مثلاً للبحرين أو ساحل الإمارات المتصالحة والكويت في هيرات قطر والعكس صحيح أيضاً .

وعلى الرغم من الصعوبات التي يواجهها النواخذة في الاستدلال على تلك الهيرات المختلفة من حيث الموقع والاسم . والاتساع والعمق وجودة المحار . . إلـخ إلا أنهم يتميزون بقـدرات رائعـة في هذا المجـال . ويطلقـون تسمية « يهاوش على البحر » على عملية الاستدلال على مواقع الهيرات في البحر ، ولقد اكتسب النواخذة الخليجيون تلك المهارة نتيجة الخبرة والممارسة الطويلة والمنافسة الحادة بين سفن الغوص العديدة (كانت في الخليج حوالي أربع آلاف سفينة غوص . وقد ذكر لوريمر بأن سكان قطر يملكون حوالي ٨١٧ سفينة غوص) وكلها تتحرك في موسم واحد وتمارس معظمها الغوص قرب السواحل الغربية للخليج العربي والتي تتميز بضحالة المياه وصفائها وتوفر الأحياء المائية بشتى أنواعها مما يساعد على وجود المحار وبكثرة في تلك المنطقة من الخليج ، لذلك كان معظم أنشطة السكان تتركز حول تلك المهنة أي مهنة الغوص على اللؤلؤ ، مما وفـر استعداداً فطرياً لدى أبناء الخليج نتيجة التعامل مع البيئة

البحرية منذ نعومة الأظافر ، لدرجة أن بعضهم يستطيع أن يستدل على موقع الهير حتى في الظلام . ويشتهر في قطر عدة نواخذة لهم باع طويل في هذا المجال أمثال النوخذا راشد بن فاضل البنعلي (الذي اشتهر على مستوى الخليج) والنوخذا نصر النصر ومن بعده ابنه النوخذا إبراهيم بن نصر والنوخذا سالم بن كدي والنوخذا شاهين بن صالح الغانم والنوخذا حسن بن عتيبة الشاعر .

وفي أغلب الأحوال يستعين نوخذا سفينة الغوص « بسكوني » ماهر يساعده في هذا المجال . والسكوني هو الشخص الذي توكل إليه قيادة دفة السفينة والتي تسمى « السكان » محلياً ، ومن هنا جاءت تسمية « السكوني » ومن صفات « السكوني » الماهر أن تكون لديه القدرة على قراءة البوصلة (الديرة) ومعرفة حركة المد والجزر والمناطق الضحلة (الرق)[٩] حتى لا يلتحم قاع السفينة بقاع البحر أو يصطدم به نتيجة ضحالة المياه فتتحطم أو تعطب وفي أحسن الحالات فإنها تلتصق بالأرض حتى يأتي زمن المد فيرتفع منسوب المياه مرة أخرى فتتمكن السفينة من الإفلات والإبحار ثانية . أيضاً من ضمن المهارات التي يجب أن تتوفر في السكوني أن يكون على دارية بمجاري السفن أي الاتجاهات التي يجب أن تبحر فيها السفينة وإلا ضلّوا عن وجهتهم . ورغم الاعتماد على الديرة إلا أن هناك ظواهر طبيعية وجغرافية يجب أن يكون السكوني عالماً بها مثل مواقع الجزر والفشوت والحالات والأخيرة يصعب التعرف عليها في وقت المد . لذلك كله فإن النوخذا يدقق كثيراً عند اختيار السكوني الذي سيعتمد عليه في الرحلة . هذا وبالإضافة إلى ذلك فإن النواخذا يهتم أيضاً بوجود « بلاد » في السفينة . والبلاد هو الشخص الذي يقوم بقياس الأعماق بواسطة « البلد » .

البلد : عبارة عن قطعة من الرصاص مربوطة بحبل توجد عليه علامات . وكل علامة تشير إلى مسافة باع . وعندما يرغب النوخذا بقياس

الأعماق خاصة عندما يشعر بأنه قريب من الهير أو أنه في الهير فعلاً فإنه يأمر « البلاد » (وقد يكون أحياناً المجدمي أو السكوني أو أنه بلاد فقط ، والذي إذا ما كان ماهراً جداً فإنه يقال بلاد قرار أي مضبوط مثلما يقال ديره قرار أي بوصله مضبوطة) بإلقاء البلد في مياه البحر . قائلاً : قط البلد ، فيقوم البلاد القرار ببلد البلد (أي بالقائه في الموقع) وهنا يبدأ البحارة بغناء شيلة مرافقة لعملية بلد البلد

دار البـلــد هـــي دار
دار الخـــير والمـحـــار

من خلال هذه « الشيلة » يتفاءل البحارة بأن البلد سيبشرهم بالخير وهو وجود المحجار . وهناك « شيلة » أخرى حول نفس العملية .

يابـلـــد يامـصـقـوعـي
هـات بعــلــوم الـقـوعـي[١٠]

في « الشيلة » السابقة يخاطب البحارة البلد ويطلبون منه نقل أخبار القاع إليهم ، وذلك لأن البلد عندما يلقي إلى البحر ويصل إلى القاع ثم يسحب مرة أخرى فإنه يجلب معه بعض العوالق من طين ونباتات بحرية ، والتي من خلالها يتم التعرف على نوعية الأرض من نوع الطين ولونه ونوع النباتات العالقة . فكل هير له صفات معينة تميز أرضه ويشتهر بها . وأفضل الهيرات من كانت الصخور تنتشر في قاعة وتربته حمراء أو شقراء تتميز بالنعومة ولذلك تسمى أرض « زليه » فيقال « هير زلي » كما تكثر فيه أنواع من الصخور أهمها « الأبيام » وهي عبارة عن صخور مرجانية و « اللياين » وهي نوع من الصخور مستطيلة الشكل أو مخروطية . ونوع آخر يسمى « الفلس » . فيوصف الهير عند ذلك بأن « أرضه زليه ويبليه - أي جبلية » كذلك يوجد بها نبات « الزريع » التي يتعلق المحار بها أو يلتصق بأوراقها .

هذا وتكـون محارة الهير (الذي يتصف بتلك السمات) كبيرة الحجم ، ولونها يميل إلى اللون الأحمر أو الأشقر حسب اللون الغالب في قاع الهير ، وتتميز بخشونة الملمس . وتوجد نتوءات على ظهرها تشبه القرون الصغيرة . وهذه أفضل أنواع المحار . وتسمى محارة « القنية أو القني » ويتوقع وجود اللؤلؤ النفيس بداخلها . أما الأرض البيضاء فإن لون المحار بها يميل إلى الزرقة . أما الهير الذي يخلو من الصخور وتكثر فيه الأشجار) فإن محارته تتميز بنمو بعض النباتات على سطحها الخارجي وتسمى « أم شيره » أو « أم شويرب » وهذا النوع من المحار لا يكون من النوع الجيد . ويتصف بضآلة وندرة اللؤلؤ فيه .

فإذا قال « البلاد » : ثراه ينبل - أي أن البلد يعلق في الطين - . قال النوخذا : أريض . اطرح . أي أنزل الشراع . أما إذا كان العالق بالبلد من مواد طينيه . . إلخ لا تشبه ما يتميز به الهير فإن النوخذا يعرف أنه قد تخطاه أو أنه في أسفله فيقرر أن « يضرب يوش على الموقع مرة أخرى . أي أن يقوم بعملية مسح جديدة على نفس الهير . واليوش هي مقدمة الشراع . فهو يطلب من البحـارة أن ينسعـوا بالـدستـور « الذي يتحكم بالشراع . وهي خشبة مستطيلة في جزء السفينة الأمامي والأوسط ويمسك بها البحارة ويدفعونها إلى الأمام وإلى الخلف »[11] فإذا أراد النوخذا أن يتقدم بالسفينة إلى الأمام وكانت الـريح مواتية أمـرهـم بأن يدفعـوا بالـدستور إلى الأمام فتبرز مقدمة الشراع « اليوش » خارج السفينة . ويواصل سيره . وبعد فترة يأمر بإلقاء « البلد » مرة . ومرتين في نفس المكان . فإذا تأكد بأنه الهير الذي كان يريد الوصول إليه . ردد عبـارتـه : أريض . اطرح . عند ذلك يتم إنزال الأشرعة . ثم يصرخ النوخذا : الهادي . . . الهادي . فيرد عليه البحارة بشكل جماعي : الهـادي الله . . الهادي الله . فيقول النوخذا : جابوا . أي صححوا وضع السفينة . فإذا تم ذلك صرخ بهم : عاشوا هابين الريح » أي أحسنتم .

بعـد ذلـك يأمـر الـسيوب قائـلاً : انشروا الميـاديف . أي مدوا المجاديف[١٢] . في ذلك الوقت يكون الغاصة قد استعدوا بالفطم والشماليل ، والسيوب قد جهـزوا (الحبـال) لتنفيذ أوامـر النوخذة بالقيام بعملية اختبار ورؤية واقعية للهير . ويقوم بهذه المهمة بالذات مجموعة من الغواصين المهرة الذين يتميزون بالشجاعة والخبرة والمعرفة بأنواع الهيرات وصفاتها . وفي بعض الأحيان يقوم بالمهمة أحد الغاصة المشهورين نيابة عن الجميع .

يغطس الغاصة فيستكشفون الموقع وإذا صادفوا محاراً حملوه معهم . بعد ذلك ينترون[١٣] ويخبرون النوخذا وباقي طاقم السفينة بما شاهدوه في القاع من أنواع الصخور ولون الأرض . . إلخ من المعلومات التي تفيد في تحديد جودة الهير من عدمه . والتي يقرر على أثرها النوخذا إذا ما كان ينبغي الغوص في الموقع أو أن الأمر يتطلب منه أن « يسن » -أي ينتقل- إلى هير آخر .

في أغلب الأحوال يقوم الغاصة بالغوص عدة مرات حتى يثبت لهم مدى جودة الهير وما إذا كان يحتوي على كمية جيدة من المحار . وفي كل مرة يخرج فيها « الغيص » رأسه من البحر بعد أن ينتر من القاع يستفسر منه البحارة جميعهم بكلمة يرددونها وهي : مول . . مول . . . مول . فيرد عليهم الغيص بدوره « المـولى الله . . . المـولى . . . المولى الله . فيسأله النوخذا : أشلون القوع (أي ما هي أحوال الهير) فيخبره الغيص بما رآه من صفات بارزه في الهير فيقول : والله القوع زلي وفيه زريع وفلس وأبيمه .

وتشتهر بعض الهيرات بكثرة المحار وجودة اللؤلؤ مثل هير « جوكي » وهير « أبـو الحنين العود »[١٤] . كما أن بعضها يتصف بالعمق الزائد الذي يرهق البحـارة خاصـة الهيرات البعيدة حيث تزداد الهيرات عمقاً كلما ابتعدنا عن الساحل واتجهنا إلى عرض الخليج . وقد يصادف وجود هيرات عميقة حتى في المناطق القريبة . أيضاً من ضمن الصفات التي تشتهر بها بعض الهيرات وجود التيارات المائية القوية التي ترهق الغيص والسيب معاً . فالغيص يجد صعوبة

في الغوص وسط تلك التيارات التي تحتاج إلى مهارة وقوة جسدية من أجل التغلب عليها . ويعاني السيب في نفس الوقت من صعوبة جذب الغيص من تلك المياه ، فيكون كمن يسحب حجراً ثقيلاً . وتعتبر الهيرات التابعة لمنطقة « حالول » من الهيرات التي تكثر بها تلك التيارات المائية .

هذا بالإضافة إلى أنها (أي تلك الهيرات) ونتيجة للتيارات المائية المذكورة تنقسم المياه فيها إلى ثلاث طبقات مختلفة من حيث درجة الحرارة . فحوالي ٤ أو ٥ الأبواع الأولى - من الملاحظ أن هيرات حالول تتراوح من حيث العمق ما بين ١٢ ، ١٣ ، ١٤ باعاً - تكون حارة نتيجة حرارة الشمس القوية في فصل الصيف . بعد ذلك تواجه « الغواص » طبقة متوسطة أو معتدلة الحرارة . وعندما يقترب من القاع يمر في طبقة باردة جداً . وتلك التغيرات في درجات الحرارة من ضمن المتاعب والمخاطر الكثيرة التي يواجهها « الغواص » في مهنته الشاقة تلك .

التبراه :

يصادف أحياناً أن يكون « الهير » « تبراه » . والتبراه تعني أن الهير مليء بالمحار الذي يكثر فيه اللؤلؤ بأنواعه الجيدة خاصة ما يسمى « بالحصابي[١٥] » . فإذا انتشر الخبر بين السفن أن الهير الفلاني « تبراه » اجتمعت كلها عليه ، ويصل التزاحم إلى أشده لدرجة أن « الخرب » أي حبال السفن المختلفة تتشابك نتيجة التزاحم والمنافسة الشديدة . وقد تحدث أحياناً بعض المعارك الجانبية بين بحارة السفن المتجاورة نتيجة ذلك ، ويتم مسح ذلك الهير في مدةٍ وجيزةٍ نتيجة الغوص المستمر والمنافسة الشديدة .

وتقضي السفن عدة أيام على ذلك « الهير » وعندما يقل المحار « يسنون » - أي ينتقلون - إلى هير آخر . . . وهكذا ، فإذا كانت سرعة الرياح مناسبة رفعوا الأشرعة . وأما إذا كان الجو ساكناً فإن النوخذا يأمر

باستخـدام « المجـاديف » . وقـد تطول فترة « التجديف » إلى عدة ساعات وأحياناً قد تمتد إلى يوم كامل . وذلك حتى تهب الرياح مرة أخرى .

لذلك فإن الهير الواحد لا يخلو من عدة سفن يغوص بحارتها في أعماقه . فإذا هبت الرياح - أي تغير اتجاهها أو زادت سرعتها - فإن السفن تسرع إلى البنادر القريبة منها ، وتترك الهير حتى ولو كان « تبراه » . فإذا هدأت الرياح عادوا مرة أخرى . وهنا تبرز ميزة النوخذا الماهر الذي يستطيع العودة إلى نفس الهير بدون صعوبة وأسرع من الآخرين . فتقوم باقي السفن بملاحقته خاصة إذا كان الهير من الهيرات البعيدة أو المجهولة والتي تقع في منطقة لا يكثر التردد عليها .

فإذا ما صادف « سنيار[١٦] » السفن هير « تبراه » فإن الفرحة تعم الجميع وتجد « السيوب » يزغردون (إيلوليشون ، حسب اللهجة المحلية) كلما خرج الغـاصـة ودياينهم مليئـة بالمحار . وتصل الأخبار إلى « الطواويش » الذين يسارعون بالحضور إلى « الهير» المذكور من أجل الفوز بشراء اللؤلؤ أولاً بأول .

ويقودنا ذلك إلى شرح تفاصيل الأنشطة المختلفة وأساليب الحياة اليومية التي يمارسهـا البحـارة أثناء الموسم . هذا بالإضافة إلى نقل صورة نرجو أن تكـون وافية حول الحياة الاجتـماعية والثقافية ، والعلاقات ما بين السفن ، والظروف المشتركة التي تواجهها . . إلخ من الصور اليومية التي كان يعايشها بحارة سفن الغوص أثناء الموسم وذلك في الفصل القادم .

١ - الهيرات : جمع هير . والهير هو مكان في قاع البحر يكثر به المحار الذي يحتوي على اللؤلؤ . وتختلف الهيرات من حيث عمق المياه ونوع الظواهر والتضاريس التي تتميز قيعانها وتختلف أيضاً من حيث كثرة المحار أو قلته ومن حيث لونه وحجمه وجودة اللؤلؤ فيه . . إلخ من الميزات .

٢ - الحالة : هي عبارة عن منطقة صخرية تغطيها الرمال . تظهر أثناء الجزر وتغطيها المياه أثناء المد العالي . انظر : راشد بن فاضل البنعلي مجاري الهداية « النايلة » من إصدارات مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية - الدوحة - قطر ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ص ١٦٢ .

٣ - المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

٤ - قرعة : كل خمسة أيام عبارة عن قرعة في عرف الغوص .

٥ - الفشوت : جمع فشت . وهي منطقة تكثر بها الصخور والشعاب المرجانية . وتستخدم كبندر للسفن إذا كان العمق مناسباً لرسو السفن وخاصة إذا كان له مدخل فيصبح محمياً بالصخور خاصة أثناء هبوب الرياح والعواصف فتلجأ إليه السفن .

٦ - العبرات : جمع عبرة . والعبرة هي سفينة نقل صغيرة . تقوم بتزويد سفن الغوص بالمياه والمؤمن . وتزورها أثناء رسوها سواء في الهيرات أو في البنادر الغير مأهولة بالسكان (كالجزر والفشوت والحالات) وتساهم في نقل الراغبين في العودة إلى البلاد مثل المرضى .

٧ - راشد بن فاضل البنعلي ، المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

٨ - المرجع السابق ، ص ١٥١ .

٩ - الرق : هي المنطقة الضحلة المياه .

١٠ - محمد طالب الدويك ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

١١ - المرجع السابق ، ص ٩٥ .

١٢ - تمد المجاديف جهة البحر فيكون طرف المجداف العريض (الصف) جهة البحر والزبان جهة السفينة الذي يلف بحبل ويسمى (جلاد أو يلاد) . أول مجداف يسمى « الزياد » والثاني « الحيبة » بعده الثالث والرابع والخامس والسادس . كل جهة بها ستة مجاديف (في السفن المتوسطة) ويزاد عليها مجدافان إضافيان فيصبح مجموعها ١٦ مجدافاً يكون على كل مجداف غواص وسيب فيصبح مجموعهم ٣٠ بحاراً .

١٣ - النتر : ينتر الغيص . أي يقوم بتحريك قدمه بقوة فيشد بتلك الحركة الحبل الذي يكون بين أصابعه فيشعر السيب الممسك بالحبل على ظهر السفينة بالحركة فيعلم بأن الغيص يريد الخروج فيقوم بسحبه من القاع بسرعة .

١٤ - العود : الكبير .

١٥ - الحصابي : جمع حصباة . والحصباة من أجود أنواع اللؤلؤ وتتميز بحجمها الكبير وصفاء لونها . . إلخ من الصفات . وهي تلي الدانة من حيث الأهمية .

١٦ - سنيار : يذكر حسن صالح شهاب في كتابه « المراكب العربية » أن السفن تترافق عادة في أسفارها مثل القوافل التجارية وتسمى في ترافقها سنجاراً ، ويتقدم السنجار مركب أمهر الربابنة فيه . كما قال ابن ماجد في كتابه « الفوائد » إذا كنت في السنجار فالكل يهتدي - بنور علومي كالسماكين في السما .

الفصل الـرابع

أساليب العمل على ظهر السفينة والأشكال الثقافية المصاحبة

يتميز أسلوب العمل على سفن الغوص بنظام تقسيم للعمل أكثر تعقيداً من نظام العمل السائد في البر ، وفي هذا الفصل سوف سنقدم شرحاً عن القائمين بالأعمال والمهن المختلفة على ظهر سفينة الغوص . إذ أن هناك مهن ووظائف مختلفة على ظهر السفينة . ولكل مهنة أو وظيفة عمال يهتمون أو يتخصصون بأدائها . فلكي تسير دفة العمل - التي تتميز بالاستمرارية طوال الليل والنهار - لابد أن يتوزع العمل على طاقم السفينة بشكل منظم ودقيق . من أجل ذلك فإن نظام تقسيم العمل يعتمد على نظام الرئيس والمرؤوس . أي بالتسلسل الهرمي لتوزيع المسئوليات . يتبعها تقسيم في المكانات والأسهم أو الحصص من العوائد . هذا بالإضافة إلى آثار اجتماعية جانبية تقوم على أسس اقتصادية . وتتوزع المهن على سفن الغوص وذلك حسب تسلسلها الهرمي كما يلي :

النوخذا :

يحتل النوخذا قمة الهرم الوظيفي في السفينة . وهو قبطانها وفي أغلب الأحوال مالكها الأساسي . وإذا لم يكن كذلك ، أي كأن يكون مستأجراً ، فإنه يطلق عليه لقب « الجعدي » . وسلطات النوخذا المالك للسفينة كاملة على السفينة والعاملين لها ، وخاصة في السفن « السلفية » وذلك لأنه يدفع للبحارة « السلف » قبل بدء الموسم و « الخرجية » أثناء الموسم و « القلاطة » بعد العودة و « التسقام » في فصل البطالة . وبواسطة تلك المبالغ المالية يكتسب النوخذا « السلفي » سلطات واسعة على البحارة على ظهر السفينة وعلى البر . هذا وإن اتضحت تلك السلطات بشكل أكبر أثناء تأدية العمل على السفينة ، حيث أدى نظام التمويل القائم على السلف إلى اكتساب « النواخذة » « السلفية » سلطات تتيح لهم في أحيان كثيرة استخدام أشد أنواع العقاب البدني . تلك السلطات التي وفرتها السيطرة الاقتصادية على نظم التمويل وأساليب توزيع الأرباح وملكية السفن .

أما النوخذا « الجعدي » وهو النوخذا المستأجر كما سبق وأن أشرنا فهو لا يملك السلطات التي تتوفر للأول فهو لا يملك السفينة كما أن أرباح السفينة

لا تعود إليه ، وإنما هو مجرد مستخدم من قبل المالك الأساسي (تاجر اللؤلؤ) . ويحصل على نصيبه من عوائد الرحلة مثله في ذلك مثل باقي طاقم السفينة . لذلك كله يكون موقفه أضعف بكثير من النوخذا « السلفي » الذي يكون الممول الأساسي للرحلة ، وإن كان قد افترض المبلغ من « الطواش » إلا أنه أمام البحارة هو مالك السفينة ، وهو الذي يقوم بمدهم بالأموال المذكورة أعلاه . هذا بالإضافة إلى أن عوائد الرحلة تعود إليه أساساً ثم يقوم بتوزيعها على بنود مصروفات الرحلة ، فيرد « السلف » إلى « الطواش » ويخصم تكاليف السفينة والمبالغ التي زود بها البحارة ، ثم يوزع الباقي حسب الأنصبة والأسهم على طاقم السفينة .

أما بالنسبة للسفن التي كانت تستخدم نظام « الخماسة » في التمويل فإن موقف النوخذا كان أضعف بكثير من زميله السابق . حيث لا يملك السلطات التي يتمتع بها النوخذا « السلفي » . إذ أن ذلك النظام يفرض عليه مشاورة البحارة في أغلب الأمور وخاصة أمور البيع والشراء . وعلى الرغم من أنه يملك السفينة إلا أنه وحسب هذا النظام لا يمدهم « بسلف » أو أية مبالغ أخرى كتلك التي تتميز بها السفن« السلفية » والتي تتيح له قدراً أكبر من السيطرة الاقتصادية على بحارة السفينة .

لذلك فإن البحارة يشتركون معه في الأرباح مهما كانت فإذا كانت الرحلة ناجحة والمحصول جيداً فإن الأرباح توزع على الجميع بعد خصم مصروفات الرحلة . أما إذا كان الموسم رديئاً فإن الخسارة تعم الجميع أيضاً . لذلك تتقلص سلطات النوخذا في السفن « الخماسة » نتيجة أسلوب التمويل المتبع . ويتأثر موقفة كثيراً بمواقف البحارة ورغباتهم . فتكثر عمليات التمرد و « الجمبزة » - سنشرح فيها بعد حركات الجمبزة والشكشكة عندما نتناول الحياة الاجتماعية على ظهر السفينة - مما يتيح لبحارة تلك السفن (الخماسة) دوراً أكبر في توجيه الرحلة حسب ما يرون وإن كان ذلك يخالف وجهة نظر النواخذا الذي يضطر إلى مجاراتهم فهم بمثابة شركاء في الرحلة .

المجـدمي :

يجلس النوخذا على الكاتل - مكان جلوسه المفضل في الفنة التي يكون في مؤخرة السفينة والمرتفعة نسبياً عن باقي أجزائها - ويقوم المجدمي نيابة عنه بإدارة العمل على ظهر السفينة لكن تحت أنظار الأول . فالمجدمي يلي النوخذا من حيث المكانة الوظيفية وهو بمثابة نائبه على السفينة . فيوجه البحارة ويتأكد من أداء العمـل بالصـورة المـطلوبة . كما ويتأكد من سلامة أجزاء السفينة وأدواتها . ويكون حاضراً دائماً لتنفيذ أوامر النوخذا .

السـكوني :

يلي المجدمي في تسلسل الوظائف . والسكوني الماهر له قدر كبير عند النوخذا . وتكون علاقتهما متينة جداً . ويتفاهم الاثنان حول اتجاهات الريح ومجاري المياه ومنازل النجوم وأمور الديرة . . . الخ . ويمسك بمقود السفينة (السكان) ويوجهه حسب ما تشير إليه « الديرة » والجهة التي يرغب بها النوخذا .

البـلاد :

سبق وأن أوضحنا مهمة وعمل البلاد . إلا أن تلك المهمة قد يقوم بها في بعض الأحيان « المجـدمي » إذ لم يكن يوجـد في معـظم سفن الغـوص « بلاد » وإنما كان ذلك في السفن الضخمة فقط والتي يزيد طاقمها عن ثمانين شخصاً .

الغيـص :

وهـو الـذي يغـوص في الأعماق ويقوم بجمع المحار الذي يحتوي على اللؤلؤ ، لذلك لابد أن تتوفر لديه القدرة على الغوص في أعماق قد تصل إلى ١٤ و١٦ باعاً أو أكثر وتلك أعماق تحتاج ، أولاً إلى لياقة جسدية عالية ، وثانياً

شجاعة أدبية تؤهله للغوص بدون الخوف من انقطاع النفس أو مواجهة الأسماك الضخمة . . الخ من المخاطر التي قد تواجه « الغيص » هناك وهو يبحث عن المحار . لذلك فإن « الغيص » يحصل على نصيب أكبر من باقي الطاقم . والغيص في السفن السلفية يحظى بالرعاية والاهتمام ولا يشارك بأيَّة أعمال أخرى قد ترهقه وتستهلك طاقته .

السيب :

هو الذي يقوم بسحب الغواص من القاع بواسطة حبل . ويجب أن يتصف السيب بالقوة الجسدية لكي يتمكن من جذب « الغيص » . وأيضاً بالانتباه والتركيز الشديد لملاحظة إشارة الغيص التي يطلب فيها سحبه من القاع . هذا ومن ضمن الأعمال الموكلة إلى السيب : التجديف ، نشر الأشرعة ، فلق المحار .

النهام :

هو الشخص الذي يقوم بالغناء أثناء أداء البحارة الأعمال المختلفة على سطح السفينة . وخاصة أثناء رفع الأشرعة ، وأثناء التجديف . والنهام في السفن الكبيرة من «الجلاسة» أي أنه لا يشارك في أي أعمال أخرى سوى « النهمة » التي هي دوره الأساسي . في حين أنه في السفن الصغيرة قد يشارك في التجديف أو قد يحل مكان أحد العمال في حالة مرضه أو إصابته .

العزال :

هو شخص يغوص لحسابه الخاص . فهو لم يأخذ سلف أو أية مبالغ أخرى مما يبعده عن سيطرة النوخذا الاقتصادية ، وسمي عزالا لأنه اعتزل عن باقي العمال ويعمل بنفسه ولديه سيبه الخاص الذي يعمل معه. وما يحصل عليه من محصول له ، سوى أنه يخصم منه الخمس للسفينة وحصة السيب

ومصروف الأكل . ويوجد في السفن الضخمة أكثر من واحد يعملون لحسابهم الخاص أو « عزال » .

الجلاسة :

أو « اليلاسة » حسب اللهجة المحلية . وهم بحارة يجلسون على ظهر السفينة . ويتم استخدامهم في الحالات الطارئة ، كأن يمرض أو يصاب أحد الغاصة أو السيوب ، فيحل أحد «اليلاسة» محله . وقد يبلغ عدد الجلاسة ثلاثة أو أكثر خاصة في السفن الضخمة .

الرضيف :

هو صبي يتراوح عمره ما بين العاشرة والرابعة عشرة . ويقوم بالأعمال الخفيفة ويتدرب على الغوص فإذا عجز عن ذلك تحول إلى سيب أو أية مهنة أخرى . وقد يصل عدد الرضفاء إلى أكثر من ستة خاصة في السفن الضخمة .

الجنان :

هو الشخص الذي يقوم بطوي (جن) الخرب (الحبال) في « الخن » . بعد البريخة . وهو يعتبر من « اليلاسة » لأنه ليس له مهنة أخرى غيرها .

راعي السريدان :

السريدان هو المكان الذي يتم فيه طبخ الطعام على ظهر السفينة . والطباخ يسمى « راعي السريدان » وهو مختص بهذا العمل فقط .

راعي الشيره :

في بعض السفن يوجد شخص من ذوي الخبرة في مجال فك المرساة عندما تعلق في أحد الصخور ويصعب فكها فيغوص عليها ويقوم بتخليصها .

التبـــاب :

هو صبي صغير يخدم في السفينة ويتدرب على العمل في البحر . ويبدأ الطفل في العمل كتباب منذ سن السادسة حتى العاشرة ثم يصبح رضيف ، ويوجد على ظهر السفن الضخمة أكثر من ستة في بعض الأحيان . والتباب ليس له سهم من أرباح الرحلة وإنما يعطيه النوخذا وباقي العمال إكراميات . هذا بالإضافة إلى أنه يسمح له بجمع « السحتيت » وهو اللؤلؤ الصغير جداً والذي ليس له قيمة شرائية ، وإذا كان والده معه وسمح له بالغوص ووجد محاره فإنه لا يفلقها إلا في موعد الفلق الذي حدده النوخذا (سواء كان كالعادة بعد صلاة الفجر أو في الحالة التي تكون فيها السفينة مليئة بالمحار فيهلزون أي يتوقفون عن العمل ويبدأون بالفلق حتى يخف الحمل أو الوزن الزائد عن السفينة) فينتظر الصبي موعد الفلق ويفلق محارته. وفي أغلب الأحيان التي يجد فيهـا لؤلؤة فإنها تضاف إلى محصول السفينة. إلا أن بعض النوخذا ذو القلوب الطيبة لا يحرمون الطفل فرحته باللؤلؤة التي كافح كثيراً لكي يستطيع أن يخرج محارتها من الأعماق .



« راعي السريدان » أو طباخ السفينة وهو يطبخ وجبة العشاء للبحارة
- المصدر : مركز التراث الشعبي لدول مجلس التعاون لدوْل الخليج العربية

هذا عن المهن السـائدة في سفينة الغـوص، أمـا أسلوب العمـل فإنـه ينقسم إلى نوعـين :

النـوع الأول : يكون محوره السفينة -وهي وسيلة النقل التي يستخدمونها- والتي تتطلب عدة استعدادات ومهام لكي يتمكن الـطاقم من تسييرهـا أو إيقافها . منها رفع الأشرعة والتجديف وسحب الحبال . . . الخ .

والنوع الثاني : هو العمل الرئيسي الذي من أجله قامت الرحلة ألا وهو الغوص على اللؤلؤ والأعمال الأخرى المساندة .

الإبحار بالسفينة والأنماط الثقافية المصاحبة :

لكي تتمكن السفينة من الإبحار كان لابد من استخدام وسيلتين أساسيتين هما الأشرعة أو التجديف . وكلا الأسلوبين تتحكم بهما بشكل أساسي الظروف المناخية أهمها الرياح ودرجة سرعتها وتقلب اتجاهاتها وحركة المد والجزر .

وترافق تلك الأعمال صور ثقافية متنوعة أهمها الأغاني التي تنتهي إلى ما يعرف بالمواويل البحرية والفنون البحرية كالفجري بتفريعاته (العدساني والحدادي . . الخ) وهي ألحان موسيقية يستخدم فيها الطبل والطوس والنهمه التي يؤديها النهام . . والتي كانت عبارة عن مواويل وزهيريات ألفّها كبار الشعراء في الخليج وقام النهامون بترديدها واستخدامها أثناء الغناء المصاحب للأعمال الرئيسة على ظهر السفينة . ويمكن أن نشير بإيجاز إلى أنواع تلك المواويل واستخداماتها .

الموال البحري : قد يتركب من مقطع واحد . مثال ذلك هذا «الموال» الذي يؤدى أثناء « البريخة »[1] :

قال الحميدي بومنصور[2]
من لا يعاشي[3] على البر
هذا جبل سنغافوره[4]
يجيك خير بلا شر
كل العرب بشروهم
وأنا بشارتي فك الانجر[5]

أما النوع الآخر والذي كثر استخدامه أثناء أداء الأعمال على السفينة فقد كان « الموال الزهيري » والذي هو أساساً متأثر بالمواويل البغدادية ، حيث يشير بعض الباحثين إلى أن تسميتها بالزهيريات يعود إلى ذلك التراث « البغدادي » الأصل .

الموال الزهيري : قد يتكون من خمسة أبيات . الشطر الأول والثاني فيه يلتزم الشاعر فيهما بقافية واحدة . والشطر الثالث والرابع بقافية أخرى تختلف عن الأولى والثانية . أما الشطر الأخير فإنه يكون بنفس قافية الشطر الأول والثاني . مثال ذلك الموال التالي وهو موال يؤدى أثناء التجديف أو موال « يرار »(٦) :

يا من غرامه يلود(٧) حشاية شيبها
نواظري من سهام البين شيبها
حبك شدهني(٨) وعن الطاعات ألهاني
عند المقابل قلت يا زين ولهاني
الزين قبلك جميع الناس شيبها

هذا وقد يزداد « الموال الزهيري » ليصبح ستة أبيات بنفس النظام السابق في ترتيب القافية . مثال ذلك(٩) :

حركت لولب من مغاليق الضمير امرار
صافي ودادي لكم عز على الامرار
يا عضد يمناي فرقاكم علي امرار

حنيت حن الفطيم ابكي خفا عقبكم
يا راس مالي ويا ذخرى وهلى عقبكم

الحر لي حت(١٠) ريشه يستزيد امرار

وقد يكون الموال أقصر من ذلك أو أكثر . وقد يتألف من ثلاثة أبيات ذات قافية واحدة تليها ثلاثة أبيات أخرى بقافية مختلفة . . والبيت السابع يقفل الموال بقافية مماثلة لقافية الأبيات الأولى . مثال ذلك[11] :

نار الغضى لوعٍ باقصى الضمير بجاي

الغيريا ما شرب كاس وزاد بجاي
ظليت أعالج بروحي كالغريج[12] بجاي

أنوح من فقدكم نوح الحمام الغرب
جني طوير الفلا هايم صباح وغرب
ما هي مروات ياللي تخلوني بديار الغرب
العي على شوفكم ما تسمعون بجاي[3]

ويكثر استخدام « المواويل » أثناء « البريخه » وأثناء « جر المجاديف » أو « البرار » فيقال « موال بريخة » وموال « يرار » .

والبريخة نوعان : بريخة على صدره ، وبريخة دواري لذلك هناك اختلافات بسيطة في أداء موال كل نوع من أنواع البريخة . أما باقي الأعمال الأخرى وأهمها » الخطفة « فإن النهام يستهل الغناء بإحدى » الافتتاحيات « الشهيرة مثل « يا الله بدينه » أو صلاة ربي عليك يا محمد » أو « يا الله الهادي » . - وهي الافتتاحيات التي تبدأ بها الحدوات البحرية عادة - ثم يقوم النهام بعدها بأداء حدوة بحرية تتميز ببساطة الكلمات والارتجال في بعض الأحيان . كما تتميز أغاني « الخطفة » عن أغاني «البريخه» وأغاني « البرار » بسرعة اللحن والأداء . في حين تتشابه معها في الاستهلال بإحدى الافتتاحيات المعهودة التي تتميز ببطء الأداء من قبل النهام ، بدون مرافقة أي أدوات موسيقية ما عدا صوت « اليواب » أو « الجواب » .

اليواب : هم البحارة أساساً الذين يشكلون « الكورس » أو القرار وكلمة « اليواب أو الجواب » تعني أنهم يجاوبون أو يردون على النهام . ودورهم هذا يتمثل في أغلب الأحوال في ترديد الكلمة التي يستهل بها النهام غناءه لكل شطر من المـوال التي قد تكـون (هـولـو أو هيليه أو ها آه آه). وهم أي « الكـورس » ينهمون بهذه العبارة الاستهلالية أساساً بعد كل شطرة يغنيها النهام. وفي بعض المواويل يقومون بترديد تلك الكلمة بشكل مستمر مشكلين بذلك خلفية مستمرة للأغنية تشبه رغاء الإبل أو هدير الموج -وبذلك يكون دورهم أساسي في لحن الأغنية وفي الوقت نفسه يؤدون العمل المطلوب منهم- كما سبق وأن أشرنا .

وتـبرز تلك الازدواجية ما بين دور البحـارة في العمـل وبين دورهم أو مشـاركتهم في الأغنية في أغاني « اليرار » بالذات - البريخة وير المياديف - والأخـيرة تبرز فيها تلك الازدواجية بوضوح أثناء أدائهم لتلك النحبة المؤثرة (هيبه) التي ينحبها البحارة أثناء دفعهم للمجاديف والتي تعبر عن حجم الجهـد الـذي كان يبـذلـه بحـارة سفن الغوص أثناء أدائهم لتلك العملية الشـاقـة . ولا يمكن للقـارىء أن يشعـر بها إلا عنـد سماعه لإحدى تلك « المواويل » وهي تؤدى من قبل فرقة كاملة وذلك على الرغم من الجو المصطنع لظروف الأغنية أثناء التسجيل .

بالإضافة إلى ذلك فإن أغاني « اليرار » و « البريخه » تتميزان بالبطء في الأداء من قبل النهام وبدون مصاحبة أية أدوات إيقاعية خاصة في أغاني (ير الميداف) في حين أن أغاني « الخطفة » تبدأ بترديد « هولو . . هولو » من النهام فيجـاوبـه البحارة « هيبه . . . هيبه » ، ثم يصدح النهام بإحدى الحدوات الاستهـلالية ثم يؤدي مقـطع البسـه (يا الله ويا الله ويا الله) الذي تصحبه الأدوات الإيقـاعية والتصفيق المنـظم جداً . وتسـاهم تلك الأغنية بلحنهـا السريع وتجاوب نهامان أو ثلاثة أثناء أدائها في إثارة حماس البحارة أثناء قيامهم بالخطف بالشراع .

ويلعب الغناء أثناء العمل في سفن الغوص عدة أدوار مهمة يمكن أن نذكر منها كونها :

أولاً - تعمل على تشجيع البحارة عند بداية الموسم ، من خلال احتفالات « يرار السفن» و« الوشار » و« السكوبه » و« الشونه » .

ثانياً - الغناء أثناء العمل يساعد البحارة على التغلب على الإحساس بالتعب أو الإرهاق ويمنحهم الحماس الذي يمكنهم من إنجاز تلك الأعمال بهمةٍ ونشاط وفي زمن قصير .

ثالثاً - الترفيه عن البحارة أثناء فترات الراحة ، أو في الحالات التي تبندر فيها السفينة نتيجة الرياح أو لأيّة أسباب أخرى . وفي أغاني السمر التي تمارس ليلاً . وكلها تساعد البحارة على نسيان متاعب العمل في أوقات فراغهم . وتتميز أغاني السمر باختلافها عن أغاني العمل البحرية فبالإضافة إلى الفجري البحري وهو أحد فنون البحر ألوان أخرى مثل السامري والخويسعاني والعاشوري . . . إلخ .

رابعاً - الاحتفال بمناسبات معينة كالمرور بالبر أو بقرب سفينة أخرى أو حين الحصول على لؤلؤة ثمينة وعند القفال .

ونظراً للدور الكبير الذي تلعبه « الأغنية » في أداء الأعمال المهمة على ظهر السفينة سوف نقدم شرح تفصيلي عن استخداماتها ، ودورها ، وأثرها على العمل . . الخ . وبداية فإننا إذا ما تأملنا أغاني العمل في السفينة فإنّنا سوف نجد أنها تنقسم إلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول :

« النهمة » الفردية بمرافقة « اليواب » وقد تكون بمرافقة أدوات موسيقية (الطبل والطوس) وقد تكون بدون أية موسيقا مصاحبة . وأهم مجالاتها أغاني « الخطفة » و« اليرار » و« البريخة » . والنهمة ألوان مختلفة . منها الفجري وهو

ألوان مختلفة مثل (البحري ، العدساني ، الحدادي ، السنقلي ، المخولفي ، الياهي ، الراكد ، المحرقي) وفن الفجري أساساً لا يستخدم إلا نادراً أثناء أداء الأعمال في سفن الغوص ، وهو يمارس في أوقات السمر وقد يكون أحد نواتج وروافد أغاني العمل .

النـــوع الثاني :

« الشيلات » . وهي لون من ألـوان الغنـاء الجماعي الذي يستخدمه البحارة أثناء تأدية الأعمال التي لا يحتاج إنجازها زمناً طويلاً . أو أن الوقت لا يناسب استخدام النهمة وقرع الطبل أثناء تأدية ذلك العمل . كأن تكون هناك ظروف جوية معاكسة (كتغير اتجاه الريح) أو هبوب رياح عاتية فترتج السفينة بشدة ، أو أن يكون العمل يحتاج إلى سرعة في التنفيذ كأن يرغب النوخذا في أن « يسن » إلى هير جديد ومن أجل توفير عامل السرعة فإنه لا يتم استخدام « النهمة » .

النـــوع الثالث :

« الهـوسات » وهي أحد ألوان الغناء المصاحبة لأداء الأعمال على ظهر السفينـة . وقـد تتبـع أحـد الافتتاحيات بدلاً من استخدام المواويل ويكثر استخدامها عند سحب حبل الخراب أو « البريخة » .

مع ذلك فلقد كان استخدام « الغناء » عند تأدية كل عمل من الأعمال في السفينة لا يتم إلا في حالات الاستقرار ومناسبة الظروف الجوية والنفسية أيضـاً . كأن يكـون الطقس مناسباً جداً للغوص و « الهير » مليء بالمحار ، والنوخذا معاملته جيدة للبحارة ويترك لهم حرية التعبير عن مشاعرهم . هذا بالإضافة إلى عامل مهم وهو أن يكون معظم طاقم السفينة ينتمون إلى « دار » أو « مجلس » ولديهم « نهامة » بعدد كافٍ . مما يساعد على أداء الفنون البحرية أثناء تأدية الأعمال المختلفة على ظهر السفينة .

وكما سبق أن أشرنا فإن (البريخة والخطفة والتجديف) من أهم الأعمال التي يبرز فيها دور « الأغنية » في تنظيم حركة البحارة أثناء أدائها بصورة جماعية . فإذا أراد « النوخذا » تغيير المكان أو (الهير) أو الانطلاق من أو إلى أحد البنادر فإنه يأمر البحارة قائلاً : فوق . أي أوقفوا العمل إذا كانوا يغوصون أو اتركوا المجاديف أو فلق المحار . . . إلخ . إن كلمة « فوق » مصطلح يستخدمه « النوخذا » كإشارة إلى الطاقم بأنه يريد منهم القيام بعمل ما . ومنذ اللحظة التي يقول فيها النوخذا : فوق يبدأ دور النهام الذي يكون مستعداً دائماً لتلقي أوامر النوخذا ويترجمها إلى أغنية معينة تكون مناسبة للعمل ويفهم منها البحارة أنه مطلوب منهم القيام بذلك العمل . مع إرشادات معينة ومصطلحات تصدر من النوخذا الجالس على « الكاتل »[١٤] .

ويقوم « المجدمي » أثناء ذلك بالإشراف على البحارة أثناء تأديتهم للعمل المطلوب منهم ويراقب عمليات « البريخة » وما يرافقها من رفع « السن » والجنان « طوي الحبال » كذلك يراقب ركن الدستور و« الهوسه » ويوجه البحارة أثناء عملهم . وفي نفس الوقت يكون « السكوني » على أهبة الاستعداد لاتباع إرشادات النوخذا خاصة أثناء الخطفة وبعدها ، فيراقب اتجاه السفينة ومدى اعتدال سيرها حتى لا تميل كثيراً وتغمر الأشرعة ويتحكم بذلك بواسطة دفة السفينة .

إنّ هؤلاء الأربعة « النوخذا » و « المجدمي » و « السكونى » وأخيراً « النهام » هم الذين يلقى على عاتقهم تنظيم العمل وحركة البحارة . وبالنسبة للنهام فإنه عادة لا يكون بمفرده على ظهر السفينة فقد يكون هناك أكثر من نهام خصوصاً في السفن «السلفية» مثل (أم الحنايا ، مقديم ، عناد ، بوفروح ، برزان ، الشارد ، الفلاحي ، النوط ، مساعد . . . الخ من السفن الضخمة الشهيرة في قطر) .

ويعتبر النهام من « الجلاسة » في السفن الضخمة ومهمته فقط « النهمة » أثناء العمل الجماعي بالذات ولا يقوم بأعمال أخرى -وله نفس سهم الغواص من الأرباح- وفي كثير من الأحيان يحصل «النهام» على مبالغ كبيرة نتيجة المزايدات التي تحصل عليه من قبل النواخذة المشهورين أو ملاك السفن الكبيرة . أما في السفن الصغيرة فقد يشارك النهام -كما أشرنا وان أشرنا- في العمل في بعض الحالات الطارئة .


البحارة وهم يمارسون الغناء وقرع الطبول أثناء العمل

من ضمن المهام الموكلة إلى النهام الغناء في الحالات الآتية :

١ - أثناء سحب حبل الخراب « البريخة » .
٢ - أثناء الخطف بالشراع .
٣ - أثناء التجديف .
٤ - أثناء المناسبات المهمة - كالقفال - .
٥ - الغناء على الغواصين أثناء غوصهم إذا كان المحصول جيداً تشجيعاً لهم
٦ - الرد على أية نهمة موجهة للسفينة من سفينة أخرى عابرة .

وسنشرح أهم الأعمال الجماعية التي يرافقها الغناء أثناء أدائها على ظهر السفينة :

أولاً : « البريخة » .

تسمى عملية سحب المرساة من مياه البحر ورفعها إلى السفينة « البريخة » . وتستغرق تلك العملية زمناً طويلاً نتيجة ثقل المرساة (انسن) وطول الحبل المربوطة فيه والمسمى « الخراب » . ويعتبر حبل « الخراب » من أهم الحبال

المستخدمة في السفينة والجزء الأمامي منه يسمى « العمار » . ونتيجة طوله الزائد يخصص له مكان في قاع السفينة يسمى « الخن » وله بحار خاص مهمته طوي تلك الحبال ويسمى « الجنان » ويزداد طول الخراب وسمكه كلما كبر حجم السفينة . وبالتالي يستلزم زيادة في عدد البحارة المشاركين في سحبه وخاصة من فئة « السيوب » الذين غالباً ما توكل إليهم هذه المهمة والمهام الثقيلة الأخرى .

وتكون « البريخه » مرهقة جداً إذا كانت بعد يوم طويل من ممارسة الغوص في الهير حيث يكون قد تم استخدام حبل الخراب بأكمله عن طريق التليين له أو زيادة طوله في كل مرة يرغب فيها النوخذا بتغيير مكان السفينة بعد أن قل المحار الذي يجلبه الغواصون من الموقع الذي يغصون فيه من الهير . أو نتيجة وجود كميات كبيرة من المحار المفلوق قد ألقيت في « المراح »(١٥) ويأتي السمك لكي يتغذى عليها فيضطرون إلى تغيير المكان فتكون البريخة هنا مرهقة نتيجة تجمع المحار والأسماك . فيبرخون ثم يجدف البحارة لمسافة قليلة ويطرحون في مكان آخر إذا كان الهير متسعاً . فسفن الغوص تتابع الأرض والمحار .

أما عملية « الرفي » أو تليين الحبل فإنها تستخدم عندما يقل المحار في الموقع فيأمر النوخذا البحارة « برفو » الحبل مستغلاً التيارات المائية في دفع السفينة إلى موقع آخر من الهير بدون أن يستخدم الشراع أو التجديف . ويتحكم في المسافة عن طريق التحكم في طول الحبل . وهكذا تبتعد السفينة تدريجياً عن المكان الأصلي . وكلما رغب في تغيير المكان زاد في طول الحبل . . . وهكذا وبذلك تكون المرساة في مكان من الهير والسفينة في مكان آخر .

فإذا كان الهير وفيراً بالمحار تبقى السفينة فيه لعدة أيام ، وعندما يقل يقرر النوخذا أن « يسن » إلى هير آخر ، وعند ذلك يقوم بإصدار أمره إلى البحارة بالتوقف عن العمل . قائلاً : فوق . فيبدأ السيوب بسحب الغاصة من

البحر . وبعد أن يستعد البحارة ويكونوا كلهم على ظهر السفينة . يأمرهم النوخذا قائلاً : ابرخ . أي اسحبوا حبل المرساة .

وكانت البريخة نوعين : النوع الأول بريخه « على صدره » . والنوع الثاني هي « البريخة الدواري » .

البريخة على صدره : هي أن يقوم السيوب بسحب الحبل وهم وقوف وقد انقسموا إلى صفين وبينهم الحبل الذي يمسكون به ووجوهم ناحية صدر (مقدمة) السفينة . ويقومون بسحبه بمصاحبة غناء النهام ويشاركون بالرد عليه أو يجاوبونه بالنحبة بقولهم (ها آاه) وفي نهاية النحبة يشدون الحبل شدة رجل واحد وهم ينحبون (هي ، هيه) حتى يتجمع الخراب على تفر (مؤخرة) السفينة ، حيث يقوم بعض البحارة بإنزال الحبل على «الجنان» الذي يكون بداخل « الخن » لكي يقوم بطويه .

يطبق أسلوب الـبريخة « على صدره » في الحالة التي يكون فيها سطحُ السفينة مليئاً بالمحار ولا توجد مساحة كافية لحركة البحارة أثناء « برخ حبل الخراب » خاصة في الفترة المسائية بعد انتهاء يوم عمل من الغوص وقد تم إلتقاط كمية كبيرة منه وتكون موجودة على ظهر السفينة[١٦] حتى صباح اليوم التالي حتى يسهل فلقه بعد أن تموت الكائنات الحية التي بداخله .

أما إذا رغب النوخذا في تغيير المكان وكان الوقت صباحاً وقد تم فلق المحار وألقيت بقاياه في البحر . أو يكون قد تم جمعه في داخل أكياس . فإنهم يستخدمون طريقة « الدواري » في سحب حبل الخراب .

وتختلف البريخة « الدواري » عن البريخة « على صدره » كون الأولى أكثر حيويةً نتيجة وجود متسع أو مساحة يتحرك خلالها البحارة أثناء سحبهم لحبل الخراب بشكل دائري . وتكون مشاركة البحارة في الغناء المصاحب أكثر من

« على صدره » فبالإضافة إلى مجاوبة النهام بالنحبة فإنهم يقومون بالتصفيق والرقص أثناء ذلك .

فإذا كانت البريخه في الصباح الباكر فإننا نجد أن النهام ينهم بعد أن يقول النوخذا : يالله فوق . خراب فوق . بالأغنية الاستهلالية « يا الله بدينه » ويتخللها « التهليل » من قبله وقبل « اليواب » -أي البحارة- إذ كانوا يفضلون بدء يومهم بذكر الله .

نموذج لأغنية على طريقة الدواري في الصباح[١٧] :

بعد أن يأمر النوخذا يسارع السيوب إلى الإمساك بحبل « الخراب » وهم يشيلون شيلة خفيفة ، هكذا : هوليا ، هوليا ، هوليا ، وبعد أن تنتظم صفوفهم يبدأ النهام بالغناء بصوت خفيض ويرد عليه البحارة بصوت جماعي خفيض أيضاً بهذه النحبة (هووه . . . . هووه) .

هولو هولو

هو يا الله بدينه

هو يا الله بدينه

هولو وصلاة النبي قبل لا بدي

ثم تبدأ « العدة » الموجودة فوق الفنه بقرع الطبل « الدمام » والطوس فيترك البحارة الحبل ويشاركون بالتصفيق المنظم ويتخلل ذلك غناء النهام بصوت مرتفع حينئذ .

النهام : هولو يا لله بدينه .

اليواب : هووه . . . هيه .

وهكذا تتكرر تلك الأغنية وبأداء جماعي فترة طويلة ثم يقوم النهام والبحارة بغناء أحد الهوسات البحرية التي تستخدم في الصباح[١٨] :

صباح الخير بادي به

ذكــر الــنــبــي ونــصــلي به
صبــاح الخــير بادي به
ذكــر الــنــبــي ونــصــلي به

ويتكرر غناء تلك الهوسة حتى ينتهي حبل الخراب . وكانت هناك هوسة معروفة يكررها البحارة دائماً بعد أن ينهم النهام « ياالله بدينه » وهي كالآتي[١٩] :

يامنــقــر عيــن شــنــاو
يامنــقــر عيــن شــنــاو

وكما أن هناك أسلوب معين لبريخة الصباح وأغاني خاصة بها كذلك الوضع بالنسبة لبريخة المساء .

البريخة على صدره : بسبب ضيق المجال الموجود على سطح السفينة فإن البحـارة يقـومـون بسحب حبـل الخراب على صدره -سبق أن شرحنا تلك الطريقة- فيبدأ النهام بغناء نهمه (ياالله الهادي) بصوت منخفض ويرد عليه البحـارة بصـوت خفيض أيضـاً بهذه النحبة (هووه . . هيه) وذلك حسب النموذج التالي[٢٠] :

النهام : هو ياالله الهادي .
اليواب : هووه . . هيه .
النهام : آه وتهدينا .
اليواب : هووه . . هيه . . بعدها تقوم العدة بقرع الأدوات الإيقاعية فيقوم النهام برفع عقيرته بالغناء .

هولــو ياللــه الهــادي
آه وتهدينــا
واللـه وقلب مشــقى
والبحــر دونــه

وتتكرر تلك الأغنية فترة من الوقت ثم يقوم النهام والبحارة بترديد هوسات خاصة بالمساء مثل[٢١] :

ضوانـــا الـــليل والمـــمـــســـى
ضوانـــا الـــليل والمـــمـــســـى

داهـــينـــه بظـــلام الـــليل
داهـــينـــه بظـــلام الـــليل

يستمر تكرار كل هوسة فترة من الوقت ثم تستبدل بأخرى

لا تهيضـــونـــه سبـــع نايم
لا تهيضـــونـــه سبـــع نايم . . . . . وهكذا

مما سبق يمكن أن نلاحظ التنويع والألوان الغنائية المختلفة التي تستخدم في « البريخه » وخاصة في النصوص المستخدمة التي تتلون حسب تغير الأزمنة التي تطبق فيها أغاني البريخة . كما يلاحظ عدم توقف الغناء حتى حين الانتهاء من سحب الحبل بأكمله إلى سطح السفينة وطيِّه في الخن .

بعد الانتهاء من سحب حبل « الخراب » سواء في الصباح أو في المساء يقوم النوخذا بإصدار أوامره بفك الأشرعة فيقول : بطل . طيح . شراع . فيستعد البحارة للخطف بالأشرعة فيبادرون إلى العمل الجديد وهم ينشدون هذه الشيلة الجماعية :

هو يا مليه . . . هو يا مليه . . . هو يا مليه
هو يا مليه . . . هو يا مليه . . . هو يا مليه

وتتكرر تلك الشيلة التي كانت أكثر « الشيلات » البحرية استخداماً بين البحارة خاصة عند التحول من عمل إلى آخر أو عند أداء الأعمال الخفيفة . والهدف منها الحث على سرعة الأداء ما بين عمل أو آخر بدون أن يكون هناك فترة توقف بين العملين . فيندفع البحارة بهمة ونشاط وهم يرددون « الشيلة » السابقة .

ثانياً : الخطفـــة :

لقد سبق وأن شرحنا كيف تتم عملية رفع الأشرعة والأغاني التي ترافق تلك العملية في يوم « الدشة » في « أول السنة » ولكننا هنا سوف نذكر عدة نماذج من أغاني « الخطفة » ودور النهام في تنظيم العمل ، ودور « اليواب » وهم البحارة .

هنـاك أغـاني « خطفة » لبداية الموسم . وأخرى للنتر أي للتنقل بين الهـيرات أثنـاء المـوسم[٢٢]. وأخرى للقفال -عند انتهاء الموسم والعودة إلى البـلاد- وجميعهـا ذات لون واحـد سواء في اللحن أو الأداء . والاختـلاف النسبي يكون في الكلمات .

على أن أهم ما يميز عملية رفع الأشرعة أن كل جزء من أجزاء الشراع له لحن أو طقـة مختلفة أو لون مختلف ، فالشراع الكبير له لحن أو طقة هو والغيلمي (الشراع الثاني) ، والجيب (الشراع الصغير) له طقه أيضاً ، والشرت والهواسة. . . وهكذا .

فإذا ما نظرنا إلى مراحل رفع الشراع نجد أن غناء النهام كان أساسياً في تنـظيم العمل الذي يتم بهذه الطريقة : فبعد رفع « السن » أو المرساة وما يرافقها من أغاني « البريخة » يبدأ البحارة بفك الأشرعة تحت إرشادات النوخذا وشـد الحبال حتى يرتفع الشراع على الدقل . وأثناء ذلك يقرع « الطبال » الطبل « الدمام » ، وينهم النهام حتى يصل الشراع إلى قمة الدقل . وأثناء ذلك يتبادل النهمة نهامين أو أكثر . تتخللها فترات توقف يقوم خلالها البحارة بالتصفيق السريع المنظم وأداء بعض الحركات ، وإصدار أصوات وصراخ ، وكل ذلك ينم عن الطرب والانسجام .



بحارة احدى سفن الغوص وهم يرفعون الشراع على دقل صارية (السفينة) - المصدر : مركز التراث الشعبي لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية

إذا فإن دور الأغـاني «أثنـاء تأدية العمـل» على ظهر السفينة لا يقتصر على تنظيم حركة العمل وإنما نجدها بالإضافة إلى ذلك تساهم في تبديد التعب والسأم عن البحارة وتضفي جواً من البهجـة أثنـاء تأدية تلك الأعمال الشاقة والخطرة في نفس الوقت حيث يوكـل إلى بعض البحارة مهمة تسلق «الدقل» أو «الشم» أو مقدمة الدستور لربط الحبال أو فكها .

ويساعد على ذلك كون إرشادات العمل لا تدخل ضمن تركيبة الأغنية فهي منفصلة عنها تماماً مما يشكل نوعاً من التغييب الذهني للبحارة عن الواقع الـذي يمارسـونـه فتلك الأغاني تتميز بتعبيرات وجدانية تتحدث عن الحبيبة البعيدة أو الهاجرة وتصف حالة الشوق التي يعاني منها الشخص الذي تعلق قلبه بتلك الفتاة . . الخ .

لذلـك نجد أن كل من في السفينة ينغمس في أداء تلك الأعمال بهمّة ونشـاط وهـو يستمع إلى صوت النهام الشجي ويتفاعل معه تفاعلاً وجدانياً كاملاً . ويعبرون هم بأنفسهم عن ذلك بقولهم « إن الغوص فرحة والطرب دواه » أي أن الغوص مهنة شاقة جداً ولا يساعدهم على نسيان ذلك الشقاء أو الصبر عليه سوى الغناء والطرب . فعندما يترنم النهام بالمواويل البحرية معـبراً عما يجيش في صدورهم تخرج ردود أفعـالهم في شكـل الأصوات التي ذكرناها سابقاً أثناء تأديتهم للأعمال المختلفة ، وذلك في تناغم مثالي مع صوت النهام .

مع ذلك فإن سرعة الأداء في تنفيذ أوامر النوخذا من قبل البحارة لا يكون سببها فقط العامل الترفيهي الذي توفره الأغاني المصاحبة لتلك الأعمال . وإنما هناك عوامل أخرى بالإضافة إلى ذلك عملت على تنظيم العمل بالنسبة للبحارة وكانت سبباً رئيسياً في مبادرتهم السريعة للقيام بالأعمال الموكلة إليهم والتي تشير إلى ارتفاع معدل انتاجية العامل في مهنة الغوص . ويمكن أن نلخص تلك العوامل في عاملين أساسين هما : المنافسة الشديدة في إجادة العمل . والتي بدورها يغذيها عاملان ، العامل الأول : يتمثل في إثبات الكفاءة أمام النوخذا الذي يراقب كل حركة تجري على ظهر السفينة .

أما العامل الثاني : فيتمثل في إثبات الذات أمام باقي البحارة ، فالضمير الجمعي يلعب دور كبير في ثقافة المجتمع . فأي فرد يتهاون في عمله أو تظهر عدم كفاءته يتعرض للنقد والسخرية من قبل أقرانه بشكل مباشر . إذ أن أسلوب العمل الجماعي من أهم الأسس التي تقوم عليها الحياة الاقتصادية . لذلك فإن الروح الفردية غير مقبولة في هذا المجال . أما العامل الآخر فيتمثل في كون العمل في مهنة الغوص هو المجال الوحيد الذي يمكن للفرد آنذاك العمل فيه والذي يمكن الحصول من ورائه على مصدر للدخل يمكن أن يعين العمال في إعالة أسرهم .

وسنورد نماذج لأغاني الخطفة بين الهيرات . والتي عادة ما تكون أثناء المساء بعد انتهاء العمل ، حيث يفضل النواخذة الانتقال من هير إلى آخر في ذلك الوقت حتى لا يضيع اليوم وهم في الطريق .

يبدأ البحارة بشيلة جماعية لتنظيم حركتهم فيغنون « هو يامليه » . . هو يا مليه . . » ثم ينهم بأغنية استهلالية مسائية بصوت منخفض . افتتاحية : « يالله يا مسانا » التي تؤدى أثناء الخطف بشراع الجيب بالذات خاصة عند الانتقال إلى مكان قريب . فيبدأ النهام بالغناء :

النهام : هيليه هيليا .
اليواب : هـا آه آه .

بعـد فترة من التكـرار يرفـع النهام صوته بنهمة سريعة مع قرع الطبل والأدوات الموسيقية المصاحبة والتصفيق المنظم من قبل البحارة .

أغنيـة خطفـة الجـيب :
النموذج الأول[٢٣] :

هولـو يا الـلـه يـا مسـانـا
هولـو وعـلينـا طالـت
هولـو وهـون علينـا
هولـو ياسـيدي ومـولاي
هولـو وبـارك لينـا
هولـو يا موّل[٢٤] الـغـايبـينـا
هولـو يا موّل توّل يا لله
هولـو يالـلـه بالـسـلامـه

تعـبر كلمات الأغنية السـابقة عن الإحساس بالضجر من طول الموسم والبعد عن الأهل والديار حين يقول (وطالت علينا) وعند التضرع إلى الله بأن يردهم من غيبتهم بالسـلامـة . وفي الـواقـع فإن أغنياتهم كانت تعبـير عن معاناتهم أثناء رحلة الغوص وأحلامهم بالعودة .

النموذج الثاني[٢٥] :

يا لله مسـانـا مبـارك
لنـا ولـلمـؤمـنـينـا
يا سـيد المـرسـلينـا
واشـفـع لنـا كل حينـا

واشــفــع لنــا بالــشــدايد
يا ممـــوّل الــغــايبــينــا
يا خالــقــي وانــت موّل
ربـي عليــك الــتــســول

وفي الحالة التي يرغب فيها النوخذا رفع الشراع (العود) فإن تسلسل العمل يكون بنفس الصورة التي قمنا بشرحها ابتداء من « يالله بدينه » أثناء رفع الشراع على الدقل إلى تثبيت الدامن مرورا بالبسة وأجزاء الشراع الباقية وما يرافقها من ألوان غنائية .

وفي بعض الأحيان يتم رفع الشراع بدون أداء نهمة معينة ويستعاض عنها بإحـد الشيلاث ، وبعـد الانتهـاء من الخـطفة يجلس البحارة يتحدثون أو يشربون القهوة والشاي ويدخنون لحين الوصول إلى المكان المقصود . أما إذا كان الوقت ليلاً فإن البحارة يلجئون إلى الشبانيك[٢٦] ليناموا حتى الفجر . في حين يستمـر « النـوخـذا » و« السكوني » مستيقظين . الأول يراقب سير واتجـاه السفينـة ، والثـاني يقضي ليله ممسكـاً بالـدفة ويوجه السفينة حسب إرشادات النوخذا ومسترشدا بالبوصلة ومواقع النجوم . وإذا كان « السكوني » ماهراً فإن النوخذا يعطيه تعليماته ثم ينام .

ثالثاً : التجــديف :

يكون الخطف بالشراع في حالة ما إذا كان اتجاة الرياح وسرعتها مواتياً للخطفة . إلا أنه كثيراً ما تواجة السفينة بعض الصعوبات مثل أن يكون الهواء ساكناً أو تكون المياه في حالة الجزر مما لا يساعد السفينة على السير بواسطة الأشرعة ، أو قد يكون المكان قريباً ولا يستدعي الخطف بها . فيقرر النوخذا استخدام « المجاديف » في التنقل .

وقد يستمر ركود الهواء فترة طويلة والنوخذا يريد تغيير الهير وعندما يأمر باستخدام « المجاديف » فإن ذلك يكون أمراً رهيباً بالنسبة للبحارة وخاصة « السيوب » منهم الذين تلقى على عاتقهم دائماً مهمة « التجديف » الشاقة . استناداً إلى قوتهم الجسمانية التي يتمتعون بها هذا بالإضافة إلى كونهم في مرتبة مهنية أقل من «الغواصين» . ويبرز ذلك في السفن السلفية الضخمة بالذات والتي تتمتع بوفرة الأيدي العاملة على متنها مما يوفر نوعاً من التخصص . فكل فئة لها دورها أو مهامها التي تؤديها على ظهر السفينة . وعلى الرغم من كون التجديف يحتاج إلى عدد كبير من الأيدي العاملة ، إلا أن النواخذة السلفية الكبار يفضلون الاحتفاظ بطاقة الغواصين من أجل الغوص على اللؤلؤ .

ويلجأ النوخذا إلى استعمال « المجاديف » للتنقل في حالات الضرورة -وذلك رغم المشقة التي يواجهها البحارة أثناء أدائهم لتلك المهمة- وإلا اعتبرت السفينة « معبطه » أي متعطلة عن العمل وهذا الأمر لا يناسب النوخذا الذي يرغب دائماً في أن ينتهز معظم الوقت الصالح للغوص خاصة في زمن الغوص العود حيث يكون الهواء معظم الوقت « مسوير » أي غير شديد أو سريع ويناسب الغطس في المياه التي تكون راكدة معظم الوقت ، ويخلو الطقس من التقلبات الجوية المفاجئة خاصة في الشهر السابع والثامن من كل عام . لذلك قد يستمر « التجديف » لعدة ساعات قبل أن يتحرك الهواء مرة أخرى . من أجل ذلك يلجأ النوخذا دائماً إلى استئجار نهام يقوم بالغناء في مثل هذه الظروف وفي الظروف الأخرى المشابهة ، حيث يساهم غناؤه في تغلب البحارة على إحساسهم بالتعب أو الإرهاق أثناء التجديف في ذلك الطقس الحار . هذا بالإضافة إلى دور الغناء في تنظيم حركة التجديف .

من أجل ذلك يستخدم النهام « اليامال » الذي هو أحد فنون الغناء البحري التي تؤدى أثناء التجديف خاصة . ففي الوقت الذي تعتمد فيه البريخة والخطفة على « الهولو » فإن أغاني التجديف تستخدم كلمة « هو

يا مال ». واليامال : عبارة عن « موال » تتميز كلماته بالحزن والشجن العميق يتغنى به النهام بصوت مؤثر وشجي . ولا يتم استخدام أي نوع من أنواع الموسيقى أثناء الغناء ، الذي يطلق عليه اسم « الحدوة » . ونجد أن معظم المواويل البحرية يطلق عليها « حدوة » أو « موال » ما عدا «الهوسة » ، فهي لون مختلف وهي : عبارة عن ترديد لبيت واحد من أبيات الشعر من قبل البحارة أثناء العمل حتى حين الانتهاء منه .

وغناء النهام يسمى « حديان » أو نهمة ويطلق على النهام أيضاً اسم « حداي » كما يقال : نهم النهام وانهموا اليواب . أما صوت « اليواب » فإنه يسمى « النحبة » التي هي عبارة عن كلمة واحدة ان صح لنا أن نطلق عليها كلمة . وهي « حيه أو هيه » وهي تشبه هدير الموج عندما يصطدم بالصخور ، يسبقها رغاء يشبه رغاء الابل (ها آه آه). وذلك الصوت الذي يسبق النحبة (هيه) يكون محاولة من البحارة لاستجماع قواهم قبل دفع المجداف . وتكون النحبه (هيه) عبارة عن أداء صوتي ينم عن دفعهم للمجداف في توقيت موحد .

ويظهر التناغم والتناسق ما بين أصوات الغناء والأداء الحركي للبحارة أثناء عملية التجديف . فعند نهاية كل شطر من الموال الذي يترنم به النهام تصل الحركة إلى أوجها فيدفع البحارة بكل قوتهم «المجاديف» وهم ينحبون «حيه أو هيه». ثم يبدأ النهام بغناء شطر جديد يعلو فيه صوته فوق صوت المجموعة وهي تؤدي النحبة السابقة. . وهكذا .



البحاره « السيوب » وهم يمارسون عملية التجديف « يرار على ظهر السفينة للانتقال من مكان إلى آخر أثناء سكون الرياح وهم ينحبون من وراء النهام أثناء غناءه « لليامال »

ويطلق على أغـاني «التجـديف» كلمة أغاني «اليرار» ويقال للتجديف «يرمـيداف» . وهـذا نمـوذج لأغنية «يرار» أو «يرميداف»(٢٧) :

بعـد أن يقـبض كل «سـيب» بمجدافه وهو واقف وعادة يعمل على كل مجداف اثنـان من البحـارة يقف النهـام في تفر أو مؤخرة السفينة قرب « الفنة » ويبدأ بالغناء .

النهام : هو يا مال .
اليواب : ها آه آه .
النهام : يا مال يا مال .
اليواب : ها آه آه .
النهام : يا مال . ويا مال . هو يا مال .
اليواب : ها آه آه . . . هيّـه .

وبعـد أن « يمـول » النهـام لفـترة من الوقت كمقدمة يبدأ بغناء أحد « المواويل البحرية » ويستمر « اليواب » بترديد « النحبة » المعروفة « هيه » وراء كل شطرة من الموال يتغنى بها النهام . مثال ذلك :

غرنكم طول البـال وأهـل الثقـه
والـدر من مبسمـه يحكي سنا هلال
لي قلت الـوصـل حال
قالـت يا فتـى لا لا

قلت ارحمي شوفي حالي
قالــت فر حال من هلي

أنــا الــعــفــيفــه وآشــابــه كالبــدر من هلي
ودي أنــا اتبع هواكم فلا شك اختشي من هلي
وأهــلي لإكــرام ومــا فيهــم دجــج[٢٨] لا لا

وبالإضافة إلى دور النهام في تنسيق حركة دفع المجاديف بغنائه كان هناك أحد البحارة يساعد في تنظيم الحركة وهو بمثابة كبير العمال ويقال له « الجبير » خاصة إذا كان طاقم السفينة يتكون من أحد «المصابن» مثلما يحدث عند إنزال السفينة إلى « الراجي ». وتكون مهمته -كما سبق وأن اشرنا- تنظيم حركة العمال بالاضافة إلى دوره في حثهم على العمل . هذا وفي أثناء ذلك يستمر غناء « النهام » فكلما انتهى من غناء أحد « المواويل » ابتدأ بموال جديد وهكذا .
نموذج آخر لموال « يرار[٢٩] » :

ريم رعــيتــه ساهــي وارد المــاي
ويعــوده[٣٠] على متــنــه في وسط المــاي

هلت العــين وهــل الــدمــع في المــاي
صوّت له يا حمد من قابلتــه رايح المــاي

خده لون الــورد تشــم له رايحــه
لمست انــا اليد وقــالت خلني رايحـه

خوفي من الـواشي يقطع جذرتي بالماي

ويلاحظ على أغــاني « الـيرار » أنها تختلف كثيراً عن أغاني « البريخة » و« الخطفة » ووجه الاختلاف يتمثل في كون الخطفة لا تعتمد على « الموال »

والغناء البطيء والحزين الذي تتميز به أغاني « اليرار » ، ووجود فروق لحنية بينهما ، تتمثل في استخدام النهام لفن « اليامال » في « اليرار » و « الهولو » في الخطفة والبريخة ، بالإضافة إلى استخدام الأدوات الإيقاعية عند غناء البريخة ، في حين يعتمد فن الخطفة على النهمة السريعة والأداء اللحني القوي من قبل قارع الطبل والأدوات الموسيقية المصاحبة خاصة عند أداء لون « البسة » . أما أغاني اليرار « اليامال » فإنها تخلو من أيّة موسيقى أو إيقاعات مصاحبة وتعتمد على غناء النهام مع مشاركة من « اليواب » وهم البحارة .

هذا وتشترك البريخة مع الخطفة في بدء العمل بإحدى الافتتاحيات التي تستمر لفترة طويلة . في حين أن التجديف أو « اليرار » يبدأ فيها النهام بالتمويل لفترة من الوقت (هو يا مال ، يا مال) . كما ويقوم باستخدام مواويل وزهيريات ذات تراكيب لفظية معقدة تحتاج إلى مهارة في أدائها من قبل النهام . في حين تبدأ أغاني الخطفة والبريخة -كما سبق وأن أشرنا- بافتتاحية تتبعها حدوة بحرية خفيفة ذات تراكيب لفظية بسيطة يستطيع النهام تغيير وتبديل أو بتر كلماتها . كما أن مشاركة البحارة بالغناء عبارة عن همهمة أثناء أداء الخطفة وبعد أن يعلو صوت الغناء والإيقاع تكون مشاركتهم بتلك الغمغمة بمثابة خلفية مستمرة لغناء النهام وهو يكرر «الهولو» .

أما « البريخة » أو « اليرار » فإن الوضع يختلف فبعد الهولو أو التمّول يقوم النهام بإلحاقها بأحد الهوسات أو أحد « الزهيريات » خاصة عند اليرار . وفي الأخيرة يقوم بغناء الشطر الأخير من بيت الشعر ، وعندما يريد غناء البيت الذي يليه فإنه يبدأ بالشطر الأخير من البيت الذي سبقه . وهكذا حتى ينتهي من ذلك الموال . ويشارك البحارة في الغناء بأداء نحبة معينة -سبق وأن أشرنا إليها- . تكون بمثابة قفل لكل بيت يغنيه النهام من الزهيرية .

أما أهم ما يميز الخطفة هو كون كل جزء من أجزاء الشراع له طقة أو لحن معين . كما أن أغاني الخطفة هي أكثر الأغاني التي تستخدم فيها الأدوات

الموسيقية . وتختلف أغاني « اليرار » عن الجميع بكونها لا تبدأ بافتتاحية ولا تستخدم أدوات موسيقية أثناء أدائها . فهي تعتمد على « اليامال » كأداء لحني حزين لا يناسبه استخدام الطبل أو أية أدوات موسيقية متوفرة آنذاك . والتي لا تعدو عن طبل وطوس ودفوف أو مراويس .

هذا ومن ضمن الأمور التي تميز أغاني « اليرار » أنها تقفل دائماً بالصلاة على النبي - ﷺ - . فيقفل النهام غناءه الطويل للمواويل السابقة بقوله: ولي صليتـوا على النبي لا تنسوا أبو الفضايل علي . ويرد عليه « اليواب » بشيلة جماعية هي كالآتي : صلى على ينابه (جنابه) . . صلِّ على ينابه . . صلِّ ينابه .

مـثـــــال[٣١] :

هو يا مال . هو يا مال . هو يا مال
أرسلت مرسـول للخـلان ما جاوبو

ما جاوبـــو خلتي ايش الحـــول بهم
ما دري ألم صابهـــم لو هو حيابـــيهـم
سعـــد مدير الفلك يرجـــع لنـــا فيهم

سلمت ما سلمـــو . جاوبت ما جابـــو

ثم يقفل الموال : اللهم صلي على النبي الهادي
اليواب : صلي على ينابه . . . صلي على ينابه . . . وبأداء جماعي يشبه أداءهم أثناء غنائهم للشيلات الجماعية . وذلك يقودنا إلى ذكر وتوضيح النوع الآخر من أغاني العمل على ظهر السفينة ألا وهو « الشيلات الجماعية » .

الشـــيلات :

في بعض الأحيان لا يتم استخدام « النهمة » أثناء تأدية العمل على ظهر السفينة نتيجة عدة عوامل أهمها على الإطلاق :

١ - عدم مناسبة الظروف الجوية . مثل هبوب رياح شديدة .

٢ - قرب المكان الذي سوف تنتر إليه السفينة .

٣ - طبيعة العمل نفسه .

عند وجود مثل تلك الظروف يستخدم البحارة نوعاً آخر من الغناء وهو «الشيلة». والشيلة : عبارة عن أغنية جماعية قصيرة جداً وغالباً ما تتألف من عدة كلمات يقوم البحارة بترديدها أثناء تأدية العمل بصوت جماعي مما يعطيها طابعـاً لحنياً . والهـدف منها التشجيع على إنجاز العمل بالسرعة المطلوبة ، وعدم التهاون أثناء أدائه وهي الميزة التي يتمتع بها بحارة الغوص والتي تنم عن عزيمة قوية ونفوس أبيّة تأبى الكسل وتنفر من التهاون .

فمثـلاً عندما يخطفون بالشراع وتكون الرياح قوية نسبياً فإن الوقت لا يسمح بأداء نهمة طويلة . عند ذلك يستخدم البحارة شيلة جماعية أثناء رفع الشراع . وهي كالآتي :

شيل الله . . . وارحم دايم

شيل الله . . . وارحم دايم

وهي تتكون من شطرتين يقوم البحارة بتكرارها حتى يصل الشراع إلى قمة الدقل . ويتضح في الشيلة السابقة ذكر الله وطلب الرحمة منه . وقد يكون بكلمات أخرى شبيهة مثل « شلنا اتكلنا على الله » أو « ربي،عليك اتكالي » أو « يالله . . . يالله . . . يالله » ويكررونها حتى حين الانتهاء من الخطف بالشراع .

وفي بعض الأحيان ورغم استخدام « النهمة » أثناء الخطف بالشراع فإن البحارة أثناء شد « الشرت » ورغم أن هناك طقة شرتية أو « المخموس » خاصة بهذه العملية إلا أن البحارة قد يستخدمون « دوهال » عبارة عن هيليه هيليه . . . وفي بعض الأحيان وعندما يتسلق البحار لكي يشد حبل « الشرت » فإنه يغني هذه الشيلة :

الشرت حبل ممدود - يالله بخير يعود
الشرت حبل ممدود - يالله بخير يعود

ويكررها حتى ينتهي من عمله .

هذا بالإضافة إلى شيلات جماعية أخرى تستخدم في مناسبات معينة أثناء الخطف بالشراع . مثل الشيلة التي يرددها البحارة في يوم الدشة بعد أن يودِّعوا أهاليهم ويغادروا المفرش (المرفأ) وهم يرفعون الأشرعة فيغنون الشيلة التي سبق ذكرها في الفصل السابق :

حي منا يا دار ايبج
حي منا يا دار ايبج
أو
داري على مداري
الحي منا يا دار ايبج

وهناك شيلات تتكرر بتكرار العمل نفسه مثل الشيلة التي تؤدى أثناء إلقاء المرساة بعد أن تطرح السفينة على الهير . وهي نوع من الرد على النواخذا عندما يصيح بهم « الهادي ، الهادي » . فيلقون بالمرساة وهم يردون عليه بهذه الشيلة :

الهادي الله . . الهادي الله
الهادي الله . . الهادي الله

أما الشيلة الأكثر استخداماً فهي ما يعرف « بالدوهال » أي أداء نغمة لحنية بكلمة أو كلمتين يرددها العمال أو البحارة أثناء قيامهم بالعمل المطلوب منهم. وأشهر أنواع الدوهال عند عمال البحر « هو ما مليه . . هو يا مليه . . هو يا مليه » . وتناسب هذه الشيلة الأعمال الخفيفة مثل إخراج المحار من الخداعات أو أثناء رفع شيء ثقيل . وتستخدم دائماً عند التحول من عمل إلى آخر .

مما سبق يتضح لنا الدور الكبير الذي كانت تلعبه الأغنية البحرية أثناء تأدية الأعمال المختلفة على ظهر السفينة سواء من حيث التنظيم أو من حيث الجو الاحتفالي الذي كانت تشيعه ، والذي كان يساعد البحارة في التغلب على عناء العمل أثناء موسم الغوص الشاق . خاصة في الأعمال الأساسية المرافقة للعمل في السفن وهي « البريخة » وخطف الشراع والتجديف . وهنا يمكننا أن نثير تساؤلاً تحتاج الإجابة عليه دراسة قائمة بذاتها . ويتركز السؤال حول الأسباب التي اختار أو أبدع على أساسها الشعب في منطقة الخليج بالذات فنون البحر ، وذلك اللون من الغناء الذي كان يرافق العمل على ظهر السفينة ، والعوامل التاريخية التي أدت إلى ظهورها بهذا الشكل ، والتي اشتهر بها شعب الخليج ، وكيف تم تطوير استخدام ذلك اللون الغنائي لكي يخدم القيام بأعمال معينة على السفينة تنتظم فيها حركة العمال في كل عمل معين مع إيقاعات لحنية معينة تصاحب ذلك العمل ، ولماذا هذا اللون الغنائي بالذات ولم يختر أنواعاً أخرى من الفنون المزدهرة في المنطقة . أي لماذا تلك الخصوصية التي برزت في الأداء واللحن والتراكيب اللفظية .

ولماذا اهتم باستخدام نوع معين من الشعر (الزهيري والمويلي). وهل ازدهر هذا النمط من النظم (الشعر) بازدهار أعمال البحر وفنونه. إذ من الواضح أن الزهيريات لا تدخل ضمن غناء (السامري أو الخماري

والخويسعاني والعاشوري وحتى السيفي مثلا) وهي فنون لا تستخدم على ظهر السفينة أثناء تأدية العمل وإنما في فترات السمر والترفيه فقط . أي بمعنى آخر هل هناك عملية انتقاء للفنون تناسب أسلوب الإنتاج والعمل . إن الإجابة على تلك التساؤلات تحتاج من الباحثين إلى وقفه عميقة من أجل تأصيل جذور هذا التراث العظيم لمنطقة الخليج العربي ، حيث أنه يتعدى مستوى الترفيه أو غناء المناسبات ، فهو تراث إلتصق بحياة الناس الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وله انعكاساته العديدة في الممارسات اليومية لحياة الناس سواء في البر أو البحر فهو أسلوب حياة . لذلك فإنه بدأ بالاندثار تدريجياً باندثار أسلوب الحياة ذاك .

هذا بالنسبة للأعمال المختلفة على ظهر السفينة . أما العمل الأساسي والذي قامت من أجله الرحلة وهو « الغوص على اللؤلؤ » فإنه يحتاج منا إلى شرح لكيفية أدائه وأهميته ودور العاملين فيه وخصائصهم . . الخ .

رابعاً : الغواصة والسوابة :

الغواصة والسوابة مهنتان مرتبطتان ببعضهما . فالغيص توكل إليه مهمة الغطس في البحر والغوص في الأعماق وإلتقاط المحار منه ، والسيب عليه مهمة سحب الغواص من القاع خاصة في الهيرات المتوسطة والشديدة العمق . أما في الهيرات الضحلة فبإمكان الغواص الاعتماد على قوة عضلاته في الغطس ثم الخروج إلى سطح البحر . وهي تقريباً تعتبر مجنى حيث يذهب إليها الرجال على أقدامهم بدون استخدام سفن وأحياناً يستخدمون القوارب الصغيرة -كما سبق وأن أشرنا- أما مهنة الغوص التي يعتمد عليها الموسم فهي الغوص في الهيرات الكبيرة وبواسطة سفن الغوص المتنوعة الأشكال والأحجام (السنبوك ، البوم ، البقارة ، الجيلبوت) .

لذلك فإن أغلب ركاب سفينة الغوص هم من الغواصين والسيوب . فإذا كان على ظهر السفينة ٣٠ غواصاً فلابد أن يكون مقابلهم ٣٦ سيباً أو أكثر قليلاً . حيث يفضل دائماً زيادة عدد السيوب على الغاصة . حيث يصادف أحيانـاً أن لا يتمكن السيب من سحب الغـواص بنفسـه فيقـوم بحار آخر بمساعدته في ذلك .

كما أن أغلب نواخذة الغوص يفضلون أن يكون هناك احتياطي للسيوب فإذا مرض أحـدهم فلا يجب أن يتعطل الغواص الجاهز للعمل لذلك يحل سيب آخر محل السيب المريض . ونفس الوضع بالنسبة للغاصة ، ويسمى الاحتياطي من العمال بالجلاسة .

ويجب على كل غيص وسيب منهم أن يعرف زميله الذي يعمل معه وفي أغلب الأحوال فإن مهمة الاختيار للسيب تقع من قبل الغيص فهو الذي يحدد من يريد أن يعمل معه . وذلك نظراً لعدة اعتبارات يضعها الغواص نصب عينيه . أهمها : كون السيب هو العامل الأساسي في مساعدته على الحفاظ على حياته من الغرق . فلو أن السيب غفل قليلاً عن مراقبة الحبل الذي يضعه الغواص بين أصابع قدمه لهلك الأخير غرقا . لذلك يفضل الغواص أن يعمل مع شخص يثق في قدراته أولاً ، وثانياً يثق في نواياه تجاهه ، ونتيجة لذلك كانت هناك في بعض الأحيان علاقات قرابة تربط ما بين الغواصين والسيوب .

الصفات النفسية والجسدية للعاملين في المهنة :

إن من أهم صفات الغيص النفسية الشجاعة والإقدام . فالذي يخاف من الغوص في الأعماق ينتهي دوره كغواص ويتحول إلى أي عمل آخر على ظهر السفينة . وإلا أصبح عاطلاً عن العمل . لذلك يبحث النواخذة عن

الغاصة المشهورين بالشجاعة والتفاني في العمل . فقد يغوص الغواص ولكنه لا يهتم كثيراً بالتقاط المحار وإنما يسارع بإعطاء الإشارة للسيب لكي يقوم بسحبه لذلك يقوم بعض النواخذة بقياس كمية المحار المجموع لكل غيص وذلك بوضعها في أكياس . فإذا لاحظ تهاوناً أو قلة المحار المجموع من أحد الغاصة فإنه لا يحجزه للموسم القادم بل يعطيه نصيبه ويسرحه بعد انتهاء الموسم .

ومن ضمن الصفات التي يجب أن يتمتع بها الغواص خلوه من الأمراض خاصة ضيق التنفس وإلا وجد صعوبة في الاحتفاظ بنفسه لفترة طويلة (حوالي دقيقة ونصف أو أكثر وقد تصل إلى ثلاث دقائق عند الغيص الممتاز) إذ أنه كلما استطاع أن يبقى فترة أطول في القاع استطاع أن يجمع عدداً أكبر من المحار .

أيضاً من ضمن الصفات الجسدية خفة الوزن . فالشخص السمين لا يستطيع مكافحة الأمواج والبقاء في الأعماق فترة طويلة لعدم تمتعه برشاقة الجسد هذا بالإضافة إلى صعوبة سحبه التي سيعاني منها السيب . لذلك يحظر على الغاصة الأكل الكثير وشرب الماء أثناء العمل . لأنه إذا شبع لا يستطيع أن يغوص ويعاود الكرات . لذلك فإن الغواصين دائماً يميلون إلى الرشاقة التي قد تصل إلى حد النحافة والهزال . وذلك بعكس السيوب الذين يجب أن يتمتعوا بالبنية القوية وبمتانة العضلات لكي يتمكنوا من سحب الغواصين من الأعماق . هذا بالاضافة إلى المهن الأخرى التي يمارسونها التي تعتمد على قوة العضلات وهي « البريخة والتجديف » .

لذلك عندما يعود الغواص إلى الوطن يكون قد بلغ منه الهزال شأوا كبيراً وذلك نتيجة الغوص المستمر مع قلة الأكل وكانت عيناه هي الأشد تأثراً حيث تصبح غائرة نتيجة الهزال الشديد ومن كثرة الغطس في المياه المالحة وضغط المياه الذي يتعرض له في أعماق الهيرات . فالنواخذة يتعمدون تخفيف الطعام

والشراب طوال اليوم للغاصة حتى يتمكنوا من الغوص بشكل أفضل . وتكون الوجبة الوحيدة في المساء حيث يأمرونهم بالأكل وبعدها يلجئون للنوم مما يوحي بأنهم في معسكر للعمل يسير حسب نظام دقيق حتى لا يفقد الغواص استعداده الجسماني ولياقته .

أما الغذاء الوحيد الذي يسمح للبحارة - وخاصة الغواصين منهم - بتناوله أثناء النهار كان عبارة عن التمر والقهوة في فترات الراحة . ويقوم السيوب أحياناً بمناولة الغواصين قطع من التمر ليأكلوها في الفترة التي يرتاحون فيها بين كل تبة (غطسه) وأخرى . أما السيب فتجده ممسكاً بالحبل بيد وبيده الأخرى قطعة من التمر يتناولها . أثناء عمله لتزوده بالطاقة التي يحتاج إليها .

ويقودنا ذلك إلى شرح طريقة الغوص على المحار . فلكي يستطيع كل من الغيص والسيب من أداء عملهما كان لابد أن يستعينا بعدة أدوات للقيام بتلك المهمة . وكانت الحبال هي أهم أداة تستخدم أثناء الغوص . وفي الواقع هما ، حبلان لكل واحد منهما استخدام مختلف عن الآخر .

الحبل الأول : هو حبل « الإيدا » وهو الحبل الذي يستعين به الغواص في الخروج من القاع ومربوط به الديين (سلة المحار) . أما الحبل الثاني : فهو حبل « الزيبل » ومربوط في طرفه « الحير » الذي هو عبارة عن ثقل من الرصاص يساعد الغواص في الوصول إلى القاع معتمداً على الثقل وموفراً بذلك طاقته لالتقاط المحار ، فالهيرات العميقة يصعب حتى على أمهر الغاصه أن يعتمدوا على قوتهم في الوصول إلى قاعها .

وحبل الايدا هو من اختصاص الغيص وهو الذي يقوم بشرائه مع «الحير» الذي يربط في حبل الزيبل والأخير من اختصاص السيب وهو الذي يقوم بشرائه ثم يصنع ربطات خاصة من تلك الحبال تساعده على أداء مهمته . وهناك ربطات أخرى خاصة بحبل الخراب مثل « الفصمة والعضية » وكان للبحار الماهر الذي يصنع ربطات الغوص مكانة خاصة عند النواخذا .

وتكـون عدة الغـوص من حبـال وملابس معدة سلفا . وعندما يطرح النوخذا بالسفينة في الهير الذي يريده يقوم باختبار قاعه -كما سبق وأن اشرنا- فإذا قرر أن يغوص الغاصة فيه يأمر السيوب قائلاً : انشر المياديف فيمدونها جهة البحر ، عند ذلك يكون الغاصه جاهزين بملابس الغوص (الشماشيل) والفـطم معلقـة في رقـابهم والحبال مطوية على شكل (مقلط) دائري يسهل «النشقـه» أي انـزلاقهـا أثناء قيام الغواص بالغوص إلى قاع الهير . وتكون موضوعة قرب « الغص » وهو المكان المخصص لغوص كل غواص في السفينة -إذ أن لكل غيص مكان محدد يغوص منه- وتكون الحبال (الايدا والزيبل) موضوعة في المكان المخصص للغواص عند كل ميداف حيث تستخدم القطعة الخشبية التي يثبت فيها الميداف لاستراحة الغواص بعد كل تبه .

ينقسم البحارة إلى قسمين . قسم يغوص في الجانب الأيمن من السفينة والقسم الثاني يغوص في الجانب الأيسر . ويتجه كل فريق عمل مكون من سيب وغيص إلى مكانهما (وحسب تعبير أهل الغوص « السيب يعرف ميداره » أي كل عامل يعرف ميداره أي مكانه مع سيبه) . فيقوم السيب بإنزال « الحير » فيتقدم الغيص وينزل إلى البحر بقدمه ممسكاً بحبل وواضعا « الحير » في ابهامه لكي يسـاعده على النزول إلى قاع الهير وقد وضع « الفطام » في أنفه لكي يساعده على الاحتفاظ بالأكسجين لفترة أطول . فإذا وصل إلى القاع فك الحير من قدمـه عنـد ذلك يقوم السيب بسحب الحبل «الزيبل» ويخرجه مع الحير ويقوم بتعليقه في المجداف .

أثناء ذلك يقوم الغيص بوضع حبل الإيدا في إبهام قدمه ويمسك بالديين ويدخل رقبته فيه ثم يمشي على يديه في قاع الهير ويتفقد المكان فإذا وجد محارة إنتقفهـا بيـــدة (إذ أنها تكون ملتصقة بالصخور أو بالنباتات البحرية) ويلقى بها في وسط الديين . فإذا شعر بانقطاع نفسه رفس بقدمه التي يمسك بها حبل الإيدا فيهتز عند السيب فوق الذي يكون في أشد حالات التركيز

لكي لا تفوته إشارة الغيص ، وعندما يرى تلك الإشارة يقوم بسحب الغواص بسرعة الذي يقوم بدوره بإخراج رأسه من الديين ويمسك به بيديه فيسحبهما السيب معاً . وعندما يصل إلى السطح يأخذ السيب الديين منه ويلقي ما به من محار على سطح السفينة ويعيده إلى الغواص الذي يكون قد تعلق بخشبة الميداف لكي يلتقط أنفاسه في استراحة قصيرة يعود بعدها للغطس بنفس الطريقة السابقة . . وهكذا .



الغواص وقد نبر من قاع اهير وقد أمسك بحلقة الديين أثناء قيام السبب بسحبه

ويستمر الغواص يغوص لفترة محددة تقصر أو تطول حسب الفصل أو الموسم . ففي الأوقات الباردة في بداية الموسم يغوص ست تبات (غطسات) ثم يخرج إلى سطح السفينة لكي يرتاح ويأكل قطعة من التمر . ويشرب القهوة ثم يعود مرة أخرى . وفي فصل الصيف تصل عدد الغطسات إلى ١٢ غطسة أو تبة وقد تصل في بعض الأحيان إلى ١٦ تبه .

يقسم يوم العمل إلى قحمتين وفي فصل الصيف الحار تصبح ثلاث قحمات . والقحمة : هي كل فترة يمارس فيها جزء من البحارة الغوص . وتتخلل تلك القحمات فترات راحة يتبادل فيها البحارة الأدوار . فالفرقة التي ترتاح تعود للعمل إذا انتهت الفرقة التي كان الدور عليها لكي يرتاح أفرادها ، وهكذا . وقد يصل عدد أفراد كل فرقة إلى ١٦ غواصاً .

فإذا قل المحار في الموقع . أصدر النوخذا أمره للغواصين بالصعود إلى سطح السفينة قائلاً : يالله فوق . فإذا ركبوا قال إرفي الخراب . فتبتعد السفينة

عن المكان الأصلي ثم يعودون للغوص من جديد . وكلما رغب النوخذا بتغيير المكان طلب زيادة طول الخراب حتى ينتهي الحبل .

ويستمر الغاصة بالغوص لفترة ساعتين أو ثلاث ساعات تتخللها فترة راحة في الفترة الصباحية يشربون خلالها قهوة مع قطعة من التمر . ثم يعاودون الغوص حتى الظهيرة وبعدها فترة راحة ثم الغوص حتى المغرب . وبعض النواخذة يقسو على البحارة فيأمرهم بالغوص حتى بعد غروب الشمس بساعة من الزمن . وعند خروج البحارة من مياه البحر قبيل غروب الشمس يأمر النوخذا باقي البحارة بالتهليل على الغاصة أثناء خروجهم من البحر . فيقول : هللو عليهم أي قولوا (لا إله إلا الله) وذلك حفظاً لهم من الجان التي يعتقد الناس آنذاك أنها تسكن البحر وأن أنسب وقت لها لكي تتلبس الإنسان هو وقت الغروب . وبعد أن يركب البحارة إلى سطح السفينة يقوم الطاقم بغسل سطاح « سطح » السفينة من مخلفات المحار بعد أن تم جمعه في أكياس أو ألقي به في وسط الخداعات . وبعض السفن تترك المحار على سطحها حتى صباح اليوم التالي .

وفي بعض الحالات التي يصادف فيها وقوع السفينة على هير «تبراه» ويخرج الغاصة من القاع إلى سطح البحر وقد ملئوا ديينهم من المحار عند ذلك تعم الفرحة الجميع ويقوم السيوب بالزغردة كتعبير عن ابتهاجهم وتشجيعاً للغواصين على العمل وجمع محار أكثر . وتجلس العدد بأدواتها الايقاعية على الفنة ويبدأون بضرب الطبول والمراويس ويقوم النهام بالنهم على الغواصين والسيوب يردون عليه «هليليه . . هي . . هي وهم يسحبون الغواصين بهمة ونشاط . ويزداد طربهم إذا كان الجو جميلاً والسمك وفيراً .

أما إذا كان المحار قليلاً فإن الوضع يختلف حيث تظهر الكآبة على الجميع . وخاصة النوخذا الذي يهمه أن تكون الرحلة ناجحة مادياً وإلا فإن وضعه الاقتصادي سيهتز كثيراً وقد يخسر معظم أملاكه نتيجة ذلك .

أما بالنسبة للغيص « العزال » والسيب الذي يعمل معه فإن لهم وضع مختلف فهو مستقل اقتصادياً عن باقي الطاقم وعمليا فهو يمارس الغوص في الوقت الذي يحب ولا يضغط على نفسه بالعمل المجهد بل أنه إذا وجد أن الموج عالي نسبياً وأن الغوص في تلك الأجواء متعب فإنه يركن إلى الراحة فوق شبناكه بعد أن جمع كمية من المحار فيقولون « عبط فلان » . أما باقي الطاقم فإنهم تحت سلطة النوخذا وليس بإمكانهم الركون إلى الراحة حين الإحساس بالتعب . فالنوخذا يراقب ما يجري على ظهر السفينة . ومسؤوله الأول (المجدمي) يقوم بحساب غطسات كل فرقه وكل دور . لذلك ما أن يأتي المساء حتى تجد الغواص وقد احمرت عيناه وتنفخت أجفانه من كثرة الغطس في المياه المالحه وسط حرارة الشمس اللاهبه وفي تلك الأعماق المجهولة معرضاً نفسه لشتى أنواع المخاطر التي كان من ضمنها الإغماء المفاجىء الذي كان يصيب بعض البحارة نتيجة الغوص في الهيرات العميقة مما يسبب لهم مشاكل كثيرة في التنفس .

فلقد كان الإغماء أثناء جمع اللؤلؤ من القاع من أهم أسباب حوادث الوفاة في موسم الغوص . وعندما يحدث ذلك فإنهم يقولون سنى فلان . أو فلان سنيان أي أغمي عليه أثناء قيامه بالغوص . ويكون سبب ذلك عدم قدرة الغواص على الاحتفاظ بتنفسه أكثر من دقيقة ونصف أو دقيقتين على الأكثر وبعض الغاصة تطول فترة بقائه في القاع فيغمى عليه قبل أن ينبر إلى سطح البحر .

فإذا سحب أو ضرب السيب على الإيدا (حبل الغواص) فخرج الديين المربوط فيه والغيص لم يخرج معه فإنه يكون أول من يتنبه إلى غرق الغواص الموكول إليه مهمة مراقبته وسحبه من القاع فيصرخ بمن في السفينة : ثرى فلان بن فلان هد (ترك) الإيدا سنيان . أي أن فلان قد أغمي عليه وقد ترك الحبل (الذي هو بمثابة حبل النجاة للغواص) .

وعنـدمـا يصرخ السيب بالبحـارة أن فلان « سنيان » جهـة اليمين أو اليســار . فإنهم يسارعون بإخبار الغاصة الذين يخرجون إلى السطح طالبين منهم العودة إلى القاع لكي يبحثوا عنه . أو ينزل أحدهم إلى (الخن) ويصوت ثرى فلان بن فلان هدا الإيدا سنيان جهة اليمين أو اليسار . وذلك حتى يسمعـه الغـاصـة الـذين يغوصون في القاع فيقومون بالبحث عن الغواص السنيان . ويقول البحاره الذين مارسوا الغوص أن الذين في القاع يسمعون الشخص الذي يناديهم ويخبرهم من الخن . ولا نعلم مدى صحة هذه المعلومة .

يقوم البحارة بالبحث عن زميلهم وفي أغلب الحالات فإنهم لا يتمكنون من إنقـاذه وبعضهم لا يجدون حتى جثته . وكما أن بعض الغاصه كان لا يستطيع الاحتفاظ بنفسه لفترة طويلة ويتعرض لمخاطر الغرق ، نجد أن في تلك المهنة من كان يتميز بذلك أي بالمهارة وبطول النفس في تاريخ الغوص على اللؤلؤ في قطر . ومن أشهرهم على الاطلاق الغواص « أبو نفور » وشخص آخر يقال له (أبو علم) ولتسميته قصة وثالث يسمى المؤمن . وقد يكون هناك العديد من الغاصة الذين برزوا في هذا المجال ، إلا أن هؤلاء قد ضرب بهم المثل في مهارتهم ، ولكل واحد منهم حكاية حول قدراته أثناء الغوص على اللؤلؤ .

حكاية : الغـواص أبـو نـفــور[٣٢] :

أبو نفور غواص اشتهر في قطر بقدرته على الغوص ولكن أهم ما كان يميزه هو قدرته على جلب المحار بكميات كبيرة ، وكانوا حسب ما أشرنا من قبل يقيسون كمية المحار التي كان يجلبها كل غواص على حده . فبعضهم كان لا يمـلأ كيسـاً واحداً وبعضهم كان يملأ ثلاثة أكياس والبعض الآخر قد يستطيع أن يملأ خمسة أكياس . أما أبو نفور فقد كان يتفوق على الجميع في

هذا المجال ولم يكن هناك أحد يستطيع منافسته في المنطقة . لذلك كانوا يتركون له جهة يغوص فيها بنفسه . وكان النواخذة يتنافسون من أجل أن يركب معهم لدرجة أنهم لا يخصمون السلف والخرجية والتسقام من أرباحه . وكان يمارس الغوص بشكل جدي من الظهر حتى المغرب أما في الفترة الصباحية فهو يتريض فقط .

وفي أحد مواسم الغوص قام نوخذا السفينة التي يعمل بها أبونفور بالتوصية على غواص من إيران اشتهر بطاقته الكبيرة على الغوص من أجل أن يقيسوا مستوى جنيه للمحار مع غواص آخر في مثل مستواه أو قد يكون أكثر منه . وعندما علم البحارة بالأمر بدأوا بالتحرش بأبي نفور والسخرية منه . وبعد فترة وصل الغواص الإيراني في عبرة واستقبل استقبال الأبطال واحتفى النوخذا به وطبخوا في ذلك اليوم غداء مع العلم أن في الغوص لا يطبخ غداء . وإنما كانت هناك وجبة واحدة هي العشاء .

عندما رأى أبو نفور الغواص المتحدي شعر بالرهبة فقد كان ضخم الجثة مفتول العضلات . في حين أن أبا نفور قصير ونحيل جداً لدرجة الهزال ومن يراه لا يظن أن بإمكانه أن يفعل شيئاً مميزاً . انتظر أبو نفور نزول الغيص الجديد معهم في صباح اليوم التالي ولكن ذلك لم يحدث فقد قاموا بسقيه « الحلول أو العشرج » حتى يكتمل استعداده للغوص . وطالت فترة انتظار أبونفور للغواص الغريب ولم ينم في تلك الليلة . وفي صبيحة اليوم الثالث نزل معهم فكان غواصاً ممتازاً ، فاهتزت ثقة أبو نفور بنفسه قليلاً ، وكان من ضمن الصفات التي يتمتع بها أبونفور أنه لا يرهق نفسه كثيراً في الغطس المستمر ويعطي جسده حقه وما أن مرت ثلاثة أيام حتى تمكن أبونفور من التغلب على الغواص المتحدي الذي ظهرت عليه علامات الإعياء في اليوم الرابع وبدأت الدماء في الخروج من فمه وجاءت العبره لكي تأخذه إلى البر وفاضت روحه قبل أن تشرع في طريقها إلى البّر .

أما الحكاية الثانية فهي للغواص أبو علم . وهو أحد أبناء الباديه ورغم قلة عهده بالبحر إلا أنه تفوق على الحضر في مجال الغوص . وميزته التي كان يتمتـع بها هي قدرته على الاحتفاظ بتنفسه لفترة طويلة . ويقول الرواة أن زملاءه قد ينبرون ثم يهدون مرة أخرى (أي يصعدون ويغوصون مرة أخرى) وهو لا يزال في القاع .

لذلك فقد كانوا يضعون علماً فوق « الغص » الذي يغوص منه فتراقب السفن العلم الـذي يشير إلى أن أبـا علـم مازال في القاع . من هنا جاءت تسميته يأبيعلم . ولم نحصل على اسمه الحقيقي .

أما الغواص الذي يقال له المؤمن فقد ذكر الإخباريون أنه من الغاصة الذين كان يشار لهم بالبنان . وقد تكون جنسيته غير قطرية . وبالإضافة إلى الذين ذكرناهم هناك غاصة أخرون منهم أحمد بن أحمد ، وراشد بن محمد . وقـد يكون هناك من اشتهر أيضاً في هذا المجال إلا أن هذا ما وصلنا من معلومات من الاخباريين الذين تم استقاء المعلومات منهم .

خامساً - فلـــق المحـــار :

أما بالنسبة للمحار الذي يجنيه البحارة فقد كان يخلط مع بعض قبل فلقه حتى إذا وجدوا لؤلؤة فإنه لا يعرف الغواص الذي جناها . فاللؤلؤ الذي يتم جنيه يكون ملكاً عاماً للسفينة ومن عليها وبعد بيع المحصول توزع الأرباح على الجميع كل حسب حصته .

فإذا تصادف وجود محار كثير في الهير فإن الكميات التي قام الغواصون بجمعها منه تكون كبيرة ومكومة على سطح السفينة وتشكل وزناً زائداً قد لا تحتمله السفينـة لذلـك فإن النـوخذا يقرر أن يقوم البحارة بالفلق بدلاً من الغوص وحتى لو كان النهار مازال في منتصفه . فيهلزون (أي يتوقفون عن

الغوص) بناء على أوامر النوخذا . ويبدأ الغاصه بالفلق بواسطة أداة تسمى « المفلقـه » حتى المساء وعند ذلك يتوقفون عن العمل . أما في الحالة التي تكـون فيهـا كمية المحـار المجمـوع لا تؤثر على حمولة السفينة فإنهم إما أن يضعوها في أكياس أو يلقى بها في « الخداع » أو « الخن » حتى لا تجرفها مياه البحر في حال هبوب رياح أثناء الليل أو حتى النهار .

وتبـدأ عملية الفلق العادية منذ شروق شمس كل يوم . حيث تكلف مجمـوعة من البحارة بإخراج المحار من الخداعات ، اثنان ينزلان إلى جوف الخن أو الخداع واثنان يتناولان المحار منهما ويقومان بإلقائه على سطح السفينة في الجهتـين اليمنى واليسرى . وينقسم بحـارة السفينـة إلى مجمـوعات كل مجموعة توكل إليها فلق كمية من المحار . وبعد أن تتجمع كل مجموعة حول كومة من المحار من مقدمة السفينة (الصدر) وحتى مؤخرتها « التفر » يأمرهم النوخذا قائلاً : اطلبوا الله . أي ادعو الله بالتوفيق . ويكون كل بحار مزوداً بأداة الفلق خاصته (المفلقه) ويبدأون بتنفيذ أمر النوخذا السابق بالفلق .

يجلس النـوخـذا على « الكاتل » يراقب عملية الفلق بانتباه شديد كما ويكلف بحارة معينين بمراقبة مجموعات الفلق . فكل مجموعة مكونة من (٥ أو ٦ بحارة) يجلس بقربها اثنان مهمتهما المراقبة وجمع اللؤلؤ في وعاء يسمى « الفلس » . وكلما مرت فترة زمنية قد تصل إلى عشر دقائق أو ما يقاربها يجمع اللؤلؤ من « الفلوس » من عند كل ركن أو مجموعة فلق ويوضع في « فلس » واحد ويؤخذ إلى النوخذا . ويسمون هذه العملية « تغيير أو يغير » وبعد أن يغـير مرتـين أو ثلاث . يقرر النوخذا وقف عمليات الفلق لأن الطقس قد أصبـح دافئـاً لممارسة الغوص . فيأمرهم قائلاً : بند أي توقفوا . فيأخذون المحار المتبقي والذي لم يتم فلقه ويلقون به فوق الفنة ويسمى « الرداد » . وبعـد ذلـك يقومون بغسل سطاح السفينة . ثم يأمرهم بمد الخراب حتى يبتعـدون عن « المـراح » - كما سبق وأن أشرنا - حتى لا تعيق بقايا المحار

والأسماك المتجمعة حوله عمليات الغوص . فيمدون حوالي نصف حبل الخراب لكي يبتعدوا قدر المستطاع عن « الفلق » . بعد ذلك يتبادلون الأدوار في الفلق . حيث تقوم مجموعة بالغوص والأخرى تجلس على الفنه تفلق من « الرداد » ثم يتبادلون الأدوار مع زملائهم وهكذا .

في بعض الأحيان يجد أحد البحارة حصباة أو دانة والذي يجدها يسارع بالركض بها إلى النوخذا الذي يكون مراقباً لمجريات الأحداث فيلاحظ ما يحصل بسرعة فينهض من مكانه ملاقياً البحار الذي يسأل النوخذا قبل أن يخبره ما بحوزته عن البشارة . فيرد عليه النوخذا كذا وكذا . وفي أغلب الأحيان يعطيه مبلغاً من المال وبشت مكافأة له . على الرغم من أن الحظ يتدخل كثيراً في هذا الموضوع . إلا أن فرحة النوخذا بحصوله على لؤلؤة ثمينة تجعله كريماً جداً هذا بالإضافة إلى أن « البشارة » من الأمور المتعارف عليها وتدخل ضمن العادات والتقاليد التي يحافظ عليها أفراد المجتمع .

ويفرح كل من على السفينة إذا حدث ووجدوا حصباه (لؤلؤة ثمينة) لأن ذلك يعني حصولهم على أرباح أكثر . وفي أغلب الأحوال فإن السفينة التي يحدث فيها ذلك تعود من فورها إلى البلاد من أجل بيع اللؤلؤة . ويحتفل البحارة بالحدث فيقومون بالغناء والرقص إلى أن يصلوا إلى الميناء في البلاد . وعندما تعود سفينة إلى البلاد أثناء الموسم فإن ذلك يكون بسبب حدث مهم لذلك يقوم السكان بمراقبة دخول السفينة إلى الميناء التي يتعالى منها صوت الغناء وقرع الطبول وعند ذلك يعلمون بأن بحارة تلك السفينة قد عثروا على لؤلؤة غالية الثمن فيفرح السكان بذلك فرحاً شديداً . وحتى لو كان قدوم السفينة في الليل فإن السكان يستيقظون على صوت قرع الطبول والغناء أثناء

الـدخول إلى الميناء لا يتم إلا في يوم القفال أي نهاية الموسم وعودة السفن بشكـل جماعي وما عدا ذلك فإن الطبول لا تقرع إلا في حالة عثور بحارة السفينـة على لؤلؤة ثمينـة) ومن يصلها قبل غيره تكون له الأولوية في شراء اللؤلؤة (الدانة أو الحصباة) إذا كان سعرها مناسباً للنوخذا إذا كانت سفينة « سلفية » أو لجميع الطاقم إذا كانت من السفن « الخماسة » . هذا وفي أغلب الحالات التي يجد فيها بحارة إحدى السفن حصباه نادرة أو دانة فإن أوضاعهم الاقتصـادية تتغـير فبعضهم يشـتري بها جمال أو ماشية وبعضهم يحاول أن يشتري بها سفينة غوص . أما النوخذا فإنه أكثر الرابحين من الصفقة وأغلب الطواشين الكبار بدأوا مسيرتهم الاقتصادية بمثل هذه الصدفة .

بعد بيع اللؤلؤة تعود السفينة إلى مغاصات اللؤلؤ بعد راحة قصيرة إذ لا يمكن لأي سفينة أن تتخلف أو تعود قبل نهاية الموسم وإلا حدثت تمردات كثيرة على السفن الأخرى .

ومن ضمن الأحداث والملابسات التي تصاحب عملية فلق المحار كان لجوء بعض البحارة إلى سرقة اللؤلؤ خاصة إذا عثر أحدهم على لؤلؤة ثمينة . مع ذلك فإن حالات السرقة نادرة جداً نتيجة المراقبة المستمرة من قبل النوخذا والحـراس المـراقبـين لعملية الفلق ، أيضـاً نتيجـة قوة المعتقـدات الـدينية والإسـلامية في نفوس البحارة والتي تحرم السرقة . أما محاولات السرقة التي كانت تحدث فقد كان يلجأ فيها السارق إلى وضع اللؤلؤة في فمه أو يقوم ببلعها لأنه لا يوجد لديه مكان لكي يخفيها به ، ولكي لا يلاحظه المراقبون أيضاً . وكان البحارة يبلغون عن السارق في الحال عند ملاحظتهم له لأنه بفعلته تلك يحرمهم من الأرباح التي ستعود عليهم في حالة بيعها .

ومن الأمور الطريفة أنهم بعد قيامهم بضرب البحار (السارق) يقومون بسقيه « الحلول » حتى تخرج اللؤلؤة من جوفه . أما في سفن الغوص العمانية فإن النوخذا لا يترك أحد البحارة ينزل من السفينة بعد العودة إلا بعد تفتيش

حاجياتهم حتى مضارب الكحل (المكحلة) يفرغون محتوياتها إذ قد يخبأ اللؤلؤة في المكحلة . وإذا سرق البحار عندهم فإن عقابه يكون شديداً حيث يعلق من رجليه على الدقل (الصاريه) ويضرب ضرباً مبرحاً من قبل الجميع . ويمنع من المشاركة في فلق المحار في الموسم القادم[٣٣] .

بذلك نكون قد ذكرنا أهم الأعمال التي يمارسها بحارة سفن الغوص مع ما يرافقها من احتفالات جماعية عبارة عن أغاني خاصة بكل مهمة يؤدونها والتي تتنوع بتنوع نوع العمل وطبيعته وحجمه . ومع ذلك فإن ما ذكرناه لا يمثل كل أشكال الحياة الثقافية والاجتماعية في مجتمع السفينة . حيث تبرز أشكال أخرى قد تكون انعكاس لعلاقات جماعة من الناس تعيش في مكان واحد (وهو السفينة) ويجمعهم هدف واحد . وسنخصص الجزء الثاني من الدراسة لشرح طبيعة العلاقات الاجتماعية والثقافية على ظهر السفينة الناتجة عن الاحتكاك اليومي بين مجموعة البشر التي تعيش عليها .

١ - قام بأداء هذا الموال الاخباري النهام سالم المال المناعي - تسجيلات الدراسة الميدانية .

٢ - الحميدي بومنصور هو أحد الشعراء المشهورين في الخليج . ولم يحدد أحد حتى الآن هوية هذا الشاعر . مع ذلك فإن مواويل هذا الشاعر قد توارثتها الأجيال بواسطة النقل الشفاهي . ويتميز هذا الشاعر بطرافة الأفكار التي يستخدمها . كما ويبدأ الموال بفقرة « قال الحميدي بومنصور » . ولهذا الشاعر دور كبير في إثراء تراثنا الثقافي ويحتاج إلى وقفة من الباحثين في تراثنا الخليجي ومحاولة لجمع مواويله التي تسكن وجدان الناس . والموال السابق له حكاية طريفة نقلناها من مقدمة ديوان « مواويل » للشاعر يوسف عبدالله المالكي ، إصدار إدارة الثقافة والفنون ، وزارة الاعلام ، دولة قطر ، ص١٠ ، ص١١ . تقول القصة : أن السفينة التي كان يركب عليها الحميدي في أحد أسفاره قد صادفتها عاصفة شديدة فضلوا الطريق فوضع النوخذا جائزة لمن يبشره

بالبر فقال أحد البحارة أمامنا جبل . . وكان جبل سنغافوره ، وكان نظر الحميدي ضعيفاً فقال له النوخذا ، بشارتك فك الانجر ، وكان يمازحه . فلما وصلوا إلى البر ، وأرادوا فك الانجر وقف لهم الحميدي شاهراً سيفه رافضاً فك الانجر وهو يقول « الأبيات السابقة » وعندما رأى النوخذا لا فائدة ترجى إلا بتحديد مكافأة للحميدي وإلا فستغرق السفينة ، حدد مكافأته ، فسمح لهم بإنزال الأنجر إلى البحر .

٣ - لا يعاشي : من لا يرى .

٤ - سنغافوره : نطقها الاخباري الذي أدى الموال « جنجفوره » .

٥ - الانجـــر : المرســاه .

٦ - أدي هذا الموال : الأخباري سالم المال المناعي - تسجيلات الدراسة الميدانية .

٧ - يلـــود : جلـــود .

٨ - شـــدهني : اذهلـــني .

٩ - أدى هذا الموال : النهام مبارك بن سعيد السليطي بمصاحبة فرقته - من تسجيلات مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية . الدوحة ، قطر .

١٠ - حـــت : ســقط .

١١ - أدى هذا المــوال : النهـام سعـد بن عواد بمصـاحبـة فرقتـه - من تسـجيلات مركــز الــتراث الشعبي لمجلس التعــاون لدول الخليج العربية . الدوحة ، قطـر .

١٢ - الغريـــج : الغريـــق .

١٣ - أدى هذا الجـزء من المـوال : النهـام مبارك بن سعيد السليطي من تسجيلات الدراسة الميدانية . وذكر أن له مناسبة خاصة تتلخص في أن أحـد البحـارة كانت بينه وبين مجدمي السفينة التي يعمل عليها خلافات شديدة وأضمر الأخير له العداء وعندما وصلوا إلى الميناء الذي

يريدونه وكان في بلاد بعيده وهم غرباء عنها ولا يعرفون أحد فيها ، طلب المجدمي الذي كانت له السيطرة التامة على السفينة من البحار النزول إلى هذا الميناء وعدم العودة معهم ، وأثناء نزوله حاملاً أغراضه ، صاح بهم قائلاً : أريد أن تسمعوا مني هذا الموال قبل أن تتركوني ، وذكر الموال السابق عندها قال له النوخذا اركب معنا فلن نتركك غريباً في هذا المكان وطلب من المجدمي النزول بدلاً منه عقاباً له .

١٤ - الكاتل : المكان الذي يجلس عليه النوخذا فوق الفنة في مؤخرة السفينة .

١٥ - المراح : المكان الذي تبقى فيه السفينة فترة طويلة . وتطلق نفس الكلمة على الأرض التي تجلس أو تنام فيها الإبل أو أيّة (ماشية أخرى فيقال مراح الإبل ، مراح الغنم) . . وهكذا .

١٦ - في بعض السفن الضخمة تكون هناك أماكن (خداعات) في قاع السفينة يحفظ فيها المحار خوفاً من أن يسحبه الموج أثناء نومهم في الليل . أو يحفظ في أكياس حيث يحب بعض النواخذة قياس محصول كل غواص من أجل إشاعة جو المنافسة ومن أجل قياس قدرات كل واحد منهم .

١٧ - أداء : فرقة مبارك بن سعيد السليطي . تسجيلات مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية ، الدوحة ، قطر .

١٨ - أداء النهام : مبارك بن سعيد السليطي ، تسجيلات الدراسة الميدانية .

١٩ - أداء النهام السابق : من تسجيلات الدراسة الميدانية .

٢٠ - أداء فرقة مبارك بن سعيد ، تسجيلات مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية ، الدوحة ، قطر .

٢١ - أداء النهام : مبارك بن سعيد ، من تسجيلات الدراسة الميدانية .

٢٢ - ان « النـتر » أي الانتقال من هير إلى آخر يكون ضمن أيام العمل لذلك فإن استخدام « النهمة » أثناء الخطفة لا يكون بشكل دائم في أغلب السفن . فهي تستخدم في حالات معينة مثل الخروج من البلاد أو في حالة كونهم « معبطين » فترة طويلة في أحد البنادر نتيجة التقلبات الجوية فيفرحون بالخطفة بعد أن تحسنت الأجواء . أيضاً في حالة ما إذا كانوا ينتقلون إلى مكان بعيد (هير بعيد) .

٢٣ - أداء فرقة سعد بن عواد ، اسطوانة رقم (١) ، تسجيلات مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية ، الدوحة ، قطـر .

٢٤ - يا مول : يا من يرد الغائب .

٢٥ - أداء فرقة سعد بن عواد ، إسطوانة رقم (١) مرجع سابق .

٢٦ - الشبناك : عبارة عن أنشوطه مصنوعة من الحبال وتربط أطرافها بين أعمدة السفينة وينام فوقها الغواص .

٢٧ - أداء : النهـام مبـارك بن سعيد السليطي . تسجيلات مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية ، الدوحة ، قطـر .

٢٨ - دجـــج : عيـــــب .

٢٩ - أداء فرقة مبارك بن سعيد - تسجيلات مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية ، الدوحة ، قطـر .

٣٠ - يعـــوده : جعوده أي الشعر الكثيف وزائد الطول .

٣١ - أداء فرقة سعد بن عواد . الإسطوانة رقم (١) تسجيلات مركز التراث الشعبي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية ، الدوحة ، قطـر .

٣٢ - لم يشر الراوي إلى الاسم الأول لأبى نفور . وإنما أوضح أنه ينتهي إلى طائفة البونفور . وأفاد بأنه سمع الحكاية المذكورة من الغواص أبو نفور شخصياً .

٣٣ - النهام بن حاقول ، جريدة الخليج ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، العدد ١٢١٢ ، ١٩٨٥/٥/٦ .

- الملاحق -

أولاً　القوائم .

ثانياً　معجم المصطلحات .

ثالثاً　دليل الجمع الميداني رقم (١) و (٢)

قائمة رقم (١)

أسماء أشهر سفن الغوص وأسماء مالكيها

اسم السفينة	نوعهـا	اسم المالـك	المنطقة
رياض	جيلبوت	حسن بن رحمه	الدوحة
الشارد	سنبوك	شاهين العسيري	الدوحة
مهيوب	جيلبوت	إبراهيم البدر	الدوحة
المنجب	سنبوك	يوسف بن جابر المالكي	الدوحة
بوكربان	سنبوك	إبراهيم بن راشد بن علي	الدوحة
عنـاد	سنبوك	خليفة الهتمـي	الدوحة
بوفـروح	سنبوك	فهد الكواري	الدوحة
مصـفـه	جيلبوت	نصر النصر	الدوحة
بـرزان	سنبوك	سلطان بن سعيد المسلماني	الدوحة
الجابريه	جيلبوت	شاهين العسيري	الدوحة
القايـد	جيلبوت	خالد بن علي الخليفي	الدوحة
بـرزه	جيلبوت	سعود بن علي الخليفي	الدوحة
النابند	جيلبوت	ماجد الخليفي	الدوحة
اليازي	سنبوك	عبد الله بن صالح السليطي	الدوحة
منـيره	جيلبوت	سعيد بن صالح السليطي	الدوحة
سـعيدة	جيلبوت	يوسف بن أحمد السليطي	الدوحة
القـني	سنبوك	عبد الله بن علي السليطي	الدوحة
الفتح	سنبوك	حسن السليطي	الدوحة
منـيره	جيلبوت	حمد بن سعيد السليطي	الدوحة
البشرى	جيلبوت	سعد بن حمد السليطي	الدوحة
الصابونه	جيلبوت	جمعه بن أحمد السليطي	الدوحة
الجـن	سنبوك	عبد الله السـليطي	الدوحة

اسم السفينة	نوعها	اسم المالك	المنطقة
الطواش	جيلبوت	أحمد بن علي السليطي	الدوحة
كامل الزين	جيلبوت	أحمد بن علي السليطي	الدوحة
السرايه	جيلبوت	-قبيلة السلطة-	الدوحة
أم الحنايا	جيلبوت	خليفة بن جاسم آل‌ثاني	الدوحة
الفرس	جيلبوت	أحمد الخليفي	الدوحة
مقديم	سنبوك	خالد بن محمد الغانم	الدوحة
مساعد	سنبوك	خالد بن محمد الغانم	الدوحة
موافج	سنبوك	خالد بن محمد الغانم	الدوحة
ضحيان	سنبوك	خالد بن محمد الغانم	الدوحة
الوسمي	جيلبوت	خالد بن محمد الغانم	الدوحة
القايد	جيلبوت	خالد بن محمد الغانم	الدوحة
السحاره	جيلبوت	خالد بن محمد الغانم	الدوحة
النوط	جيلبوت	سعيد بن سالم البديد المناعي	الدوحة
البستان	جيلبوت	بومطوي المهندي	الخور
الفلاحي	جيلبوت	أحمد بن عيسى المهندي	الخور
العود	سنبوك	أحمد بن عيسى المهندي	الخور
الفرس	جيلبوت	حمد بن سالم المناعي	أبوالظلوف
تيسير	جيلبوت	صالح بن سالم المناعي	أبوالظلوف
الحمره	جيلبوت	علي بن راشد	أبوالظلوف
العبيدليه	جيلبوت	حسن الحايك	أبوالظلوف
يدوع	جيلبوت	بوشرود	أبوالظلوف
أم النمل	جيلبوت	محمد السيد	الرويس
الوسميه	جيلبوت	محمد السيد	الرويس
المنور	جيلبوت	بدر السيد	الرويس
الصير	جيلبوت	عمران الكواري	الغاريه
الملايه	جيلبوت	عمران الكواري	الغاريه
النيره	جيلبوت	علي بن جاسم آل ثاني	الضعاين

قائمة رقم (٢)
أشـهر مـلاك السـفن

الاسـم	المنطقة
خليفة بن جاسم آل ثاني	الدوحة
خالد بن محمد الغانم	الدوحة
خليفة الهتمي	الدوحة
جمعه بن أحمد السليطي	الدوحة
محمد بن راشد العسيري	الدوحة
خليفة بن ماجد السليطي	الدوحة
عبد الله المسلماني	الدوحة
إبراهيم بن نصر النصر	الدوحة
بونيـوم	الدوحة
البـدر	الدوحة
البنعـلي	الدوحة
فهـد الكواري	الدوحة
سالم بن كدي	الوكرة
عبد الله الاملح	الوكرة
راشد بن سعد	الوكرة
حسن بوعبود	الوكرة
ماجد بن سعد المدحوب	الوكرة
مبارك بن علي الخاطر	الوكرة
سعيد بن فضيله	الوكرة
إبراهيم السبيعي	الوكرة
بوهنيـدي	الضعاين
علي بن جاسم آل ثاني	الضعاين

الاســـم	المنطقة
سلطان بن جاسم آل ثاني	الضعاين
بـن مـترف	الضعاين
الحميديات	الضعاين
المضاحكه	الضعاين
أحمد بن عيسى المهندي	الخـور
بومطـوي المهنـدي	الخـور
حمد وصالح أولاد سالم المناعي	أبو الظلوف
محمـد بو شـرود	أبو الظلوف
محمـد وبـدر السيد	الرويـس
الذياب النعيمي	الرويـس
آل خلــف	الرويـس
بن دعبوس	الرويـس
البن عمران الكواري	الغاريـه

قائمة رقم (٣)

أشــهر النهامـين

الاســـم	المنطقة
ميلي بن علي	الدوحة
دهام رمضان	الدوحة
سالمين ولد أم قراض	الدوحة
مايد بن سلطان	الدوحة
راشـد المـاس	الدوحة
فرج علي - بودندن	الدوحة
بوخمســين	الدوحة
ياقــوت	الدوحة
عبد الله البدر	الدوحة
بومتيوح	الدوحة
سالم المال المناعي	الدوحة
سليمان السودان	الدوحة
نابت الهتمي	الدوحة
خلف بن صالح	الدوحة
مبارك بن سعيد السليطي	الدوحة
ســعد بن عــواد	الدوحة
جوهـر بن بطــي	الدوحة
ســفــاروه	الدوحة
ســعيد الطــويل	الدوحة
بشــير بوفايده	الدوحة
الغلســي	الخــور
بيــاد	الخــور
سالمين بن حسين	الخــور
سلوم عبد الملك	الخــور
ســرور	الخــور
محمد بن عبد الله بوريحان المناعي	أبو الظلوف
سلطان بن مبارك المناعي	أبو الظلوف
عشير بن خلف	أبو الظلوف
شـــريـد	أبو الظلوف

قائمة رقم (٤)

أشــهر الدور فـي مدينـة الدوحـة

فــري
بومـايد
البصره - ميلي الغانم -
ميلي بن سلطان
مفتاح بن زيد
بـوحلـــوم
عيســى ولد بطبط
سالمين ولد أم قراض
أولاد حارب
أمان الفضاله
غانم بوصبع
مفتاح بن سعيد
رشـدان
اللنكاوي

معجم لبعض مصطلحات الغوص

الكلمة	معناها
خوره	مكان طبيعي لرسو السفن حتى لو جزرت المياه فإنها تظل مليئة بالمياه نتيجة عمقها .
طابكَ	عندما تقترب السفينة من الساحل وترسو بمحاذاته يقال: طابقت .
الهوري	قارب صغير يستخدم معه شراع الجيب الصغير ، ويتسع لعدة أشخاص .
الدومي	السفن الشراعية تسمى الدومي .
العبره	سفينة نقل صغيرة .
القلص	قارب التنقل بين السفن .
البانوش	قارب صغير .
الكيت	قارب صغير تحمله السفن معها .
الولم	اتجاه الرياح .
جله	جلت السفن أي أبحرت .
التبراه	الهير المليء بالمحار الغني باللؤلؤ .
ايتبب	عندما يجمع التباب (الصبي الصغير) اللؤلؤ المتخلف يقال: ايتبب .
الشراع مكرف	عندما يميل الشراع وتنقلب السفينة يقال كرف الشراع أو كرفت السفينة .
الهلاز	التوقف عن العمل ويقال : هلز فلان .
السقي	المد .
الشبر	الجزر .
رشه المايه	المد الشديد .
الحمل	المد الكبير الذي يحدث مرتان في الشهر .
حمل الراس	المد في بداية الشهر .
الشونه	صبغ السفينة .
الهباب	حك ما يلتصق بالسفينة من أوساخ وطحالب .

معجم لبعض مصطلحات الغوص

الكلمة	معناها
متبنه	عندما تزيد كمية الطحالب على جدار السفينة فإن الخشب يتبن أي يتآكل .
الخرس	البلل .
يلحم	عندما تجزر المياه فتلتصق السفينة بقاع البحر يقال لحمت .
ينيرون المحمل	يصبغون جوانبها بالنيره .
الدشه	بدء موسم الغوص .
الكَفال	نهاية الموسم .
الوشار	اصلاح السفينة .
اليداف	العودة إلى البلاد من الهيرات .
اليوش	يكرر المرور على نفس المكان .
الفنطاس	خزان المياه في السفينة .
الخن	مخزن مؤن في قاع السفينة .
خداع	مخزن مؤن وأدوات في قاع السفينة .
البريخه	جر حبال المرساه .
الخطفه	نشر الأشرعة .
كسر	الغاء الرحلة .
شلو	ابحرو واقلعوا بواسطة الأشرعة .
لز	اقترب .
سنيار	مجموعة السفن التي تتبع الواحدة الأخرى .
طرح	رسى في الهير أو في الميناء .
سرو	ساروا ليلا .
غبشو	انطلقوا منذ الفجر الذي يسمى الغبشه أي قبل شروق الشمس .
البارح	الرياح الشمالية العاتيه .
السيلي	الرياح الجنوبية .
صفري	فصل الخريف .
القيظ	فصل الصيف .

معجم لبعض مصطلحات الغوص

الكلمة	معناها
مرونه	منطقة عند الساحل الشمالي تعيق تقدم السفن أثناء الجزر بسبب ارتفاعها .
الحاله	المنطقة الرملية المرتفعة في البحر وتظهر أثناء فترات المد وتكون خطره جداً إذا لم يعلم ربان السفينة بمواقعها لأنها تختفي في وقت المد فلا ترى بالعين المجردة فتصطدم بها السفينة .
عابوس	الهواء العاصف المغبر .
يعبرونه	ينقلونه من مكان إلى آخر بواسطة العبره .
الزاد	المؤن .
النشر	عندما تخرج الفتيات لأداء رقصة المراداه في الأعياد يقال انشروا البنات .
يتسفر	يبحث أو يستدل .
يروي	يجلب الماء من العيون .
المزار	سحب الماء من العيون ونقله إلى السفن .
الموح	رفع الماء بواسطة الدلاء من العيون .
سردال البحر	أمير الاسطول .
اليفت	دواء يعده الغواصين ويدهنون به أجسادهم بعد الغوص ويفيد في تخفيف اصابتهم بالتقرحات الجلدية .
يهاوش	يستدل في البحر ليلا .
ضربة الهوا	هبوب الرياح .
دوكَ الهوا	هدوء الهواء وسكونه بعد شدته .
خواهر	السكون التام بحيث لا توجد نسمة هواء .
قلاطه	نصيب البحار من النوخذا .
قص	حصل على .
الدقل	صارية السفينة .
البنديره	عمود خشبي وراء الدفه تنشر فيها الراية .
السكان	دفة السفينة .

معجم لبعض مصطلحات الغوص

الكلمة	معناها
الحتن	الموعد أو زمن حدوث الشيء .
المصبنه	مكان يجتمع فيه محبي الطرب والشباب لقضاء وقت فراغهم .
الازقرت	الشاب المتأنق والقوي الشجاع ذو العزيمة والارادة القوية .
الجبير	رئيس العمال .
الفليج	المحار المفلوق .
الرداد	باقي المحار الذي لم يفلق .
الفلس	الاناء الذي يجمع فيه اللؤلؤ أثناء الفلق .
الشكشكه والجمبزه	تمرد البحاره على النوخذا .
اعسموه	خالفوا أوامره .
يمير	يتزود بالمؤن .
الميره	المؤونه .
ضووا	عادوا ليلا .
المحمل	السفينة .
الخشب	السفن .
المركب	السفينة .
الراكي	المكان الذي يرقون السفينة فيها أي يغرقونها .
يطبعونها	يغرقونها .
الميدف	مكان السفينة الذي تسحب إليه بعد نهاية الموسم .
الميدفات	قطع خشبية تسند السفينة وهي في الميدف .
الطعوم	مفردها طعم وهي قطع خشبية توضع تحت السفينة أثناء انزالها إلى البحر أو سحبها منه .
اليرار	سحب السفينة أو التجديف كلتا العمليتان يقال لهما يرار .
ينبر	الغواص عندما يشد الحبل الذي في قدمه فيسحبه السيب يقال له نبر أو ينبر .
الهير	مغاص اللؤلؤ . وهو عبارة عن منطقة ضحلة وسط المياه العميقة .

معجم لبعض مصطلحات الغوص

الكلمـة	معنـــاهـا
البنـدر	مكان رسـو السـفن .
الفرضـه	هي المينــاء .
المفرش	المياه الممتده أمام الساحل خاصة في الخيران .
الشراع مترّسْ	منتفخ بفعل الريح .
يهريع	يســرع .
المايات	التيارات البحرية .
الباع	ستة أقدام . وهو مقياس أعماق البحر .
الغبـه	المياه العميقة .
المسكر	حاجز صخري يستخدم كوسيلة لصيد الأسماك حيث تحجزها بعد انحسـار المياه .
سـنو	اتجهوا إلى مغاصات اللؤلؤ . ويقولون سن فلان اليوم .
دخلوا	عادوا إلى البلاد أثناء الموسم .
قلط	تقدم للامام . وجهز الشيء (قلطه) وقلط فلان : ادخله إلى المجلـس .

بحث : الاحتفالات الجماعية في المجتمع القطري

- دليل الجمع الميداني رقم -١-

« طقوس احتفالات البحارة ببدء وانتهاء موسم الغوص »

اسم المبحوث

الســــــن

المنطـقــــة

المهنة القديمة

يهدف هذا البحث إلى جمع ورصد نصوص الطقوس الاحتفالية التي كانت تتم عند بداية موسم الغوص وفي نهايته . وبناء على ذلك فإن من الشروط الواجب توافرها في المبحوث معاصرته ومشاركته في تلك الاحتفالات ، وأن يتميز بقوة الذاكرة وحفظ نصوص الأغاني ولذلك فإنه من الأفضل تطبيق استمارة المقابلة على من عملوا كنهامين في تلك الفترة وعلى المشتركين في الفرق الغنائية آنذاك ويمكن تطبيقها على الشعراء الشعبيين لصلتهم بالموضوع .

طقــوس احتفــالات البحــارة
ببدء وانتهاء موسم الغوص

أولاً : طقـوس بـدء موسـم الغـوص - الدشـــه :

- ماذا يسمى اليوم الذي يتم فيه انزال السفينة إلى البحر .
- هل هناك أيام محددة يتم فيها بدء الموسم . وانزال السفن إلى البحر .
- أين يتجمع البحارة في اليوم المحدد لانزال السفينة .
- هل كانوا يمارسون نوعاً من الغناء . ولماذا يتم ذلك . تذكر أنواع الأغاني إن أمكن ذلك .
- ما هي نوعية الغناء التي تؤدي أثناء التوجه إلى ساحل البحر من أجل انزال السفينة . تذكر إن أمكن ذلك .
- هل كانت تساهم في ذلك « عديد » فرق غنائية . وما هي أشهر تلك الفرق . أم كانت تلك مهمة طاقم السفينة .
- ما هي الأدوات الموسيقية المستخدمة .
- هل كان ذلك احتفالاً ببدء الموسم .
- ما هي الفترة التي تستغرقها تلك الاحتفالات .
- كيف تتم عملية انزال السفينة إلى البحر . وماهي التسمية التي تطلق عليها .
- ما هي الأغاني المستخدمة أثناء انزال السفينة إلى الماء .
- كم من الوقت يستغرق انزال السفينة إلى البحر .
- هل كان يتم رفع فتاة صغيرة إلى السفينة . ولماذا كان يتم ذلك . هل كان من أجل التبرك بها في انجاح رحلة الغوص .
- هل هناك حكايات مرتبطة بذلك .

- ما هي الأغاني المرافقة للتجديف أثناء ابتعادها عن الساحل . تذكر إن أمكن ذلك .
- ما هي الأغاني المرافقة لنشر الأشرعة والاتجاه إلى مغاصات اللؤلؤ .

الحياة الثقافية والاجتماعية على ظهر السفينة :

- وصف تفصيلي لحركة العمل على ظهر السفينة .
- مدى أهمية التعاون بين البحارة .
- هل كانت تحدث مشاجرات بين البحارة أحياناً . اذكر حكاية أو سالفة إن أمكن ذلك .
- كيف يتم تنظيم حركة العمل مع صوت النهام والايقاع (الطبل) .
- هل يقتصر دور النهام على تنظيم العمل أم يمتد دوره إلى تسلية البحارة في أوقات الراحة .
- هل كان يتم تبادل الاشعار بين البحارة .
- هل كانت تجري مباريات في الشعر مثلاً . اذكر أمثلة لشعراء .
- كيف يتم تناقل قصيدة جديدة بين السفن في الهيرات المختلفة . اذكر مثال على ذلك .
- كيف يتم الاتصال بين السفن . هل كان بواسطة القلص والتنقل بواسطته بين السفن مثلاً .
- هل يتم تبادل البحارة وتنقلهم بين السفن .
- هل كان مثلاً يتم خطب أحد الفتيات من قبل أحد البحارة إذا تصادف وجود أحد أفراد عائلتها على ظهر السفينة أو بطريق الاتصال في سفن أخرى .
- هل حدثت حكاية معينة أو سالفة على ظهر أحد السفن .
- هل كانت تجري جلسات سمر في الليل .
- ان حدث ذلك ما هي نوعية الأغاني التي تؤدي فيها .

- هل كان أحد البحارة يقوم بقص الحكايات (الحزاوي) على البحارة الآخرين في جلسات السمر تلك .
- هل هناك حكايات أو خرافات يؤمن بها البحارة مثل الجن والمرده . . . الخ. تذكر إن أمكن ذلك .
- عندما يمرض أحد البحارة ماذا يفعل له باقي الطاقم .
- عندما يتشاجر أحد البحارة مع النوخذا كيف كان يتم عقابه .
- هل كانت فروض الصلاة تؤدي جماعية أم فردية .

ثانياً : طقوس انتهاء الموسم « القفال » :

- كيف يتم تحديد موعد انتهاء موسم الغوص .
- ما هو دور سردال البحر في اعلان موعد القفال .
- كيف يتم اعلان النبأ . وهل كانت السفن قريبة من بعض لكي تعرف أن السردال قد أعلن العودة .
- ما هي مشاعر البحارة عند سماعهم نبأ العودة . وما هي المفردات التي يتبادلونها عند سماعهم نبأ العودة .
- هل كانت تجري احتفالات على ظهر السفينة احتفالاً بالعودة .
- إذا وجدت احتفالات ما هي نوعيتها . شرح تفصيلي للرقصات والألحان والمفردات .
- متى تبدأ تلك الاحتفالات هل تستمر في طريق العودة .
- عندما ترسو السفن بالقرب من الساحل هل كان البحارة يشيلون شيلات تعبر عن احتفالهم بانتهاء الموسم .
- ان وجدت مثل تلك الاحتفالات ما هي نوعيتها .
- ما هي الاشعار والكلمات التي تؤدي في تلك الشيلات .
- ما هي الأدوات الموسيقية المستخدمة .
- ووصف للحركات الايقاعية التي يقوم بها البحارة .

- هل كانت تشبه العرضه البرية في الألحان وطريقة الوقوف .
- أداء تلك الشيلات والألحان إن أمكن .
- ما هو دور النهام في مثل تلك الشيلات .
- ما هو دور البحارة في مثل تلك الشيلات .
- وصف لمشاعر البحارة عندما يرون الساحل وقد اصطف عليه الأهالي والأطفال مرحبين بعودتهم .
- كيف كان البحارة يتصرفون عند رؤيتهم لذلك المشهد .
- هل كانت تطلق المدافع ترحيباً بعودة الغواصين .
- وصف لعملية الاتجاه هو الشاطيء بعد النزول من السفينة والسلام على الأهل .
- هل يتم سحب السفينة إلى اليابسة قبل ذهاب البحارة إلى منازلهم .
- ما هي الأدوات التي تساعد البحارة في سحب السفينة .
- هل كانت تؤدي أغاني أثناء سحب السفينة إلى الشاطيء .
- بعد استراحة البحارة من موسم الغوص هل كانت تجري احتفالات وسمرات .
- أين كانت تقام تلك السمرات .
- من أشهر النهامين في تلك الفترة .
- كيف تتم السمرات ومن يشارك بها .
- ما هي نوعية الأغاني .
- هل كانت تقام الولائم احتفالاً بانتهاء الموسم .
- ما هي الأغاني « السورية في قطر » وهل أصولها أفريقية .

بحث : الاحتفالات الجماعية في المجتمع القطري

- دليل الجميع الميداني رقم -٢-

- الاحتفالات النسائية

١ - احتفالات وطقوس الوداع

٢ - احتفالات وطقوس القفال

الاحتفالات البرية بالقفال
- انتهاء موسم الغوص -

أولاً : « طقوس الوداع » :

- كيف تعد المرأة نفسها وأسرتها لقضاء الفترة التي يغيب عنها فيها رب الأسرة .
- ما هي الاحتياجات التي تقوم باعدادها للزوج أو الأب أو الأخ والتي سيأخذها معه في رحلة الغوص .
- كيف يتم توديع الأهل المشتركين في رحلة الغوص وهل تذهب النساء والأطفال إلى الشاطىء لتوديع الأهل والسفن المقلعة .
- هل يحتفل الرجال بانزال السفن إلى البحر . وماذا تسمى تلك العملية . وماذا يسمى يوم اقلاع السفن .
- كيف يتم الاحتفال آن وجد . هل هناك طبول وغناء .
- ما هي نوعية الأغاني . تذكر إن أمكن ذلك .
- هل تشارك النساء في تلك الاحتفالات . سواء بالغناء أو بالمشاهدة فقط .
- هل تشارك الفتيات في الاحتفالات . وكيف يتم ذلك .
- كيف تتم عملية رفع أحد الفتيات إلى السفينة ولماذا يتم ذلك . هل ذلك بقصد البركة أو التبرك بها من أجل انجاح رحلة الغوص .
- هل كانت تشارك فرق غنائية (عديد) من أجل الاحتفال بانزال السفن . ما هي الفترة التي تستغرقها تلك الاحتفالات .
- هل كان هناك يوم معين تنطلق فيه السفن إلى الهيرات لبدء موسم الغوص .
- وصف لعملية انطلاق السفن . هل كان ذلك يتم بصورة جماعية . أم إن كل سفينة تنطلق منفردة .
- كيف يكون شكل الحياة في المدينة بعد ذهاب الغواويص إلى البحر .
- كيف كانت تقضي المرأة يومها في فترة غياب الزوج في موسم الغوص .

- من الذي يجلب لهن الماء من العيون . وكيف تتم عملية الجلب تلك .
- هل كانت هناك بائعات متجولات يبعن السمك ، وأخريات يبعن مواد الزينة والاحتياجات الأخرى . وما هي مسمياتهن .
- من كان يبقى في المدينة بعد ذهاب الرجال .
- هل كان الأطفال يغنون على آبائهم الغائبين وهم يلعبون على ساحل البحر .
- هل هناك أغاني معينة للأولاد وأخرى للبنات . تذكر .
- ما هي الألعاب التي كان يمارسها الأولاد والبنات .
- هل كان الطواويش الذين يذهبون في رحلات قصيرة إلى الهيرات ينقلون الأخبار بين أهل البر والبحارة على السفن .
- هل كانت النســاء يتنقلن بحرية في المدينة بعد ذهاب الرجال . وصف لنمط الحياة آنذاك .

ثانياً : « طقــوس الاســتقبال » - القفال -

- ما هي الطريقة الفكلية في حساب موعد العودة من الغوص . أو كيف تحسب النساء موعد القفال .
- كيف تستعد النساء لاستقبال العائدين . هل تكون قبل موعد العودة بعدة أيام .
- هل تجهز النساء مواد زينة معينة مثل المشموم والحناء والرشوش والملابس . . . الخ .
- ما هي الأغاني التي كن يغنينها أثناء غياب الرجال . اذكر تلك الأغاني إن أمكن .
- هل كن يغنين على الرحى وهن يطحن أو ينسجن السدو والمغازل أو أثناء قلي القهوة على ابائهن ورجالهن الغائبين المعرضين للخطر .

- هل هناك أغاني معينة كن يغنينها من أجل سلامة الرجال . وهل هناك قصائد مشهورة مرتبطة بقصص معينة . اذكري تلك الحكايات أو القصص .
- هل هناك طقوس معينة تقوم بها النساء من أجل سلامة وعودة الرجال من موسم الغوص .
- ما هي طقوس « توب توب يا بحر » .
- لماذا تكون القطة ذات لونين أسود وأبيض .
- وصف لعملية تغطيس القطة في مياه البحر . وكم مرة يتم تغطيسها .
- هل تربط يد القطة وقدميها .
- هل تزين القطة قبل التغطيس . وما هي مواد وأدوات زينتها .
- لماذا تغطس القطة في البحر .
- ماذا يقال أثناء تغطيسها .
- وصف لعملية كوى البحر . وما هي الأداة التي تستخدم في كويه .
- لماذا يكوى البحر . وكيف يتم ذلك . وماذا يقال أثناء كيه .
- ماذا سيصيب البحر بعد كويه بالنار .
- وصف لعملية قذف البحر بالحجارة .
- لماذا يقذف البحر بالحجارة . ولماذا حجارة المقبرة بالذات .
- ماذا يقال أثناء قذفه بالحجارة .
- هل يستخدم تراب المقبرة أيضاً . ولماذا . وماذا يحصل للبحر بعد قذفه بتلك الأشياء .
- إذا لم تكن حجارة مقبرة هل هناك أشياء أخرى يعتقدون بها .
- ما هي الأغاني التي ترافق تلك الطقوس .
- متى تتم هذه الطقوس . هل كانت في الليل أم في النهار . ولماذا .
- هل كانت تلك الطقوس تجري في السر أم كانت علنية ويحضرها عدد كبير من النساء .

- هل تتزين النساء من أجل القيام بطقوس « توب توب يا بحر » .
- ما الهدف من اقامة تلك الطقوس .
- هل كانت كل منطقة تقوم بأداء تلك الطقوس .
- كيف كانت طبيعة تلك الاحتفالات هل كانت جادة أم أنها كانت للتسلية والترفيه .
- ما هي الأغاني التي كانت ترافق تلك الطقوس . تذكر الأغاني وإن أمكن بنفس اللحن .
- لماذا يعامل البحر وكأنه شخص حي تتم مخاطبته وعقابه .
- هل توجد طقوس أخرى . اذكريها .
- هل كانت هناك فرق غنائية (عديد) تقوم بتلك الطقوس وبأداء الأغاني المرافقة .
- هل كانت هناك مغنية ورداده (كورس) .
- ماذا كان دور المغنية أو رئيسة العدة . وما هو دور الرداده .
- هل تخجل النساء من أداء تلك الطقوس بأنفسهن . بمعنى آخر لماذا يتم استخدام العديد .
- هل كانت هناك أدوات موسيقية ترافق تلك الطقوس مثل الطارات والطبول .
- هل هناك حكايات مرتبطة أو قصة (سالفة) .
- ما علاقة الخرافات بتلك الطقوس . وهل يحرمها الدين .
- هل يحضر الأطفال تلك الطقوس . وفي حالة النفي . ولماذا يمنعون من حضورها .
- عندما يقترب موعد عودة الغواويص هل كانت النساء والفتيات يمارسن احتفالات أخرى مثل « المراداه » .
- هل كان ذلك تعبيراً عن الفرحة بقرب عودة الغواويص .

- إذا كان ذلك أين كانت تقام تلك الرقصات . متى في الصباح أو المساء أو الليل .
- كم كانت تستغرق . عدد الساعات .
- هل كانت تقام لعدة أيام .
- ما دور جبل السودان الشهير في ذلك .
- ما هي الأغاني التي كن يغنينها أثناء « المراداه » . تذكر .
- هل كانت الأغاني حول الغواويص . ومن الذي يعطيهم الاشعار .
- كيف تتم تلك الاحتفالات والتجمع .
- هل يمنع الرجال من مشاهدتها .
- هل كانت هناك امرأة تقوم بحراسة المكان من أجل منع وصول أي من الرجال إلى المنطقة التي تمارس فيها المراداه كأن تجلس على قمة التلة أو الحزم .
- هل هناك احتفالات أخرى بالاضافة إلى المراداه .
- عندما يعلن عن عودة السفن ماذا تفعل النساء .
- هل تذهب النساء والأطفال لاستقبال الغواويص على الشاطيء .
- هل كانت تقام احتفالات على الساحل أثناء انتظار وصول الأسطول العائد مثل العرضات والشيلات من قبل الرجال والمراداه والغناء من قبل الفتيات والسيدات .
- ما الفترة التي تستمر فيها الاحتفالات بعودة الغواويص .
- هل كانت تقام السمرات والولائم والمراداه احتفالاً بالعودة . وصف لما كان يجري بعد العودة .
- هل كان الرجال يحضرون الهدايا للأطفال والنساء . وما هي نوعية الهدايا .
- هل كانت الفرحة تعبيراً عن نجاح رحلة الغوص وسداد الديون .
- ماذا يفعل الرجال بعد انتهاء موسم الغوص .

طبـــع في المطبعـــــة الأهليـــــة
AL-AHLEIA P. PRESS Doha - Qatar

رقم الايداع بدار الكتب القطرية : ٤٠١ لسنة ١٩٩٤م
الرقم الدولي (ردمك) : ٣ - ٠٥ - ٢٠ - ٩٩٩٢١

من مطبوعات
إدارة الثقافة والفنون - وزارة الاعلام والثقافة
دولـــة قطـــر